

سلسلة «الروحانيات والليتورجيا»

٤

الصلاة الحية

www.christianlib.com

المتروبوليت أنطوني بلوم

الصلاة الحية

سلسلة «الروحانيّات والليتورجيا» ٤

الصلاة الحيّة

المتروبوليت أنطوني بلوم

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة

للنشر والتوزيع م. م.

صدرت الطبعة الأصليّة من هذا الكتاب باللغة الإنكليزيّة السّنة ١٩٦٦
بعنوان: «Living Prayer» وترجم إلى لغات عدّة.

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة للنشر والتوزيع م.م.
©جميع الحقوق محفوظة، بيروت ٢٠١٣

أنجزت مطبعة الينبوع طباعة هذا الكتاب
في شهر نيسان ٢٠١٣

المحتويات

٧	توطئة
٩	الفصل الأول: جوهر الصلاة
٢١	الفصل الثاني: الصلاة الربّانية
٤٧	الفصل الثالث: صلاة برطيماوس
٥٣	الفصل الرابع: تأمل وتعبّد
٧١	الفصل الخامس: صلاة غير مستجابة والتماس
٨٥	الفصل السادس: صلاة يسوع
٩١	الفصل السابع: الصلاة النسكيّة
٩٧	الفصل الثامن: صلاة الصمت
١١٣	الخاتمة: صلاة للمبتدئين

توطئة

يكمن أساس العبادة والإيمان، بالنسبة إليّ، في العلاقة بين الله والإنسان. في البدء لم أكن مؤمنًا، لكن في أحد الأيام اكتشفت الله، وعلى الفور اتّضح لي أنّه القيمة الأسى والمعنى الكامل للحياة وللإنسان في الوقت عينه. أعتقد أنّ الإيمان قد لا يعني شيئًا البتّة لمن ليس عنده أيّ دافع ليؤمن. إذ لا يمكنك أن تعلّم الإيمان لمن لا يشعر بوجود الله الحيّ، قد يمكنك أن تعلّمه كيف يتصرّف كما لو كان يؤمن، لكنّ هذا لن يكون الموقف العفويّ الناجم عن الإيمان الحقّ. لذا وفي هذه التوطئة لكتاب حول الصلاة، أودّ أن أعبّر عن ثقتي التامة بإله يمكنك أن تقيم معه علاقة. كما أرغب في أن أطلب من قارئّي أن يتعامل مع الله كجارّ له، وأن يثمن هذه العلاقة تمامًا كما لو كانت علاقة مع صديقه أو أخيه. أعتقد أنّ هذا أمر أساس.

أحد الأسباب التي تكمن وراء عبادة جماعيّة عاديّة أو صلاة فرديّة باردة، هي في أنّ فعل العبادة، الذي يحصل في القلب المتّصل بالله، غائب في أغلب الأحيان. كلّ تعبير بالكلام أو بالحركة قد تكون له فائدة. لكن

هناك تعبير فقط عمّا هو أساس أي الشركة العميقة والصامته.

كلّنا يعلم أنّ الحبّ والصدّاقة في العلاقات البشريّة يكونان عميقين عندما نستطيع أن نصمت أمام الآخر. ما دمنا بحاجة إلى الكلام للتواصل، يمكننا أن نفترض أنّ العلاقة ما زالت سطحيّة. وهكذا إذا أردنا أن نعبد الله علينا أن نتعلّم كيف نكون سعداء ونحن نصمت في حضرته. هذا أمر سهل أكثر ممّا نتصوّر، ونحتاج فقط إلى قليل من الوقت والثقة والشجاعة.

سأل أحد القديسين الفرنسيين، في القرن الثامن عشر، فلاحًا عمّا يفعله عندما يجلس لساعات في الكنيسة، ويبدو حتّى كأنّه لا يصليّ. وأجاب الفلاح: «أنا أنظر إليه وهو ينظر إليّ ونحن سعيدان معًا». هذا الرجل تعلّم كيف يتحدّث مع الله من دون أن يخرق الصمت بالكلمات. ونحن إذا استطعنا ذلك يمكننا اعتماد أيّ شكل من الصلاة نريده. وإذا حاولنا اقتصار العبادة على الكلمات التي نستخدمها، سنتعب من هذه الكلمات ونملّ، لأنّها إذا لم تحظ بعمق الصمت ستبقى سطحيّة ومرهقة.

ولكن كم هي موحية تلك الكلمات التي يدعمها الصمت وتتشبع بالروح: «أيّها السيّد افتح شفّتيّ فيخبرني بتسبّحتك» (مز ٥٠: ١٧).

الفصل الأول

جوهر الصلاة

منذ البدء تقريبًا، يطرح إنجيل القديس متى مسألة ماهية الصلاة وجوهرها. فالمجوس شاهدوا النجم الذي انتظروه طويلاً، ومن دون أي تأخير وتلكؤ، مضوا يبحثون عن الملك، فوصلوا إلى المذود، جثوا على ركبهم، وقدموا له العبادة والهدايا، فجسّدوا الصلاة في أصدق تجلياتها، أي في التأمل والتعبّد.

أحياناً، في أدبيّات الصلاة، يقال لنا إنّ الصلاة مغامرة أسرة. ومن المألوف أن نسمع: «تعال تعلّم الصلاة، الصلاة مهمّة جدّاً ومثيرة، إنّها اكتشاف عالم جديد حيث تلتقي الربّ وتجد طريقك إلى الحياة الروحيّة». من ناحية، هذا صحيح طبعاً، لكنّنا ننسى أمراً بعيد الأثر، وهو أنّ الصلاة مغامرة محفوفة بالمخاطر، ولا يمكننا ولوجها من دون الشعور بالمجازفة. وكما يقول القديس بولس الرسول: «ما أرهب الوقوع في يد الله الحيّ» (عبرانيين ١٠: ٣١). لذلك فإنّ الشروع بمواجهة الله الحيّ لهو

مخاطرة مروعة، فكل لقاء مع الله، بمعنى من المعاني، هو الدينونة الأخيرة. فعندما نكون في حضرة الله، خلال أحد الأسرار أو أثناء الصلاة، نحن نقوم بعمل شديد الخطورة، وبحسب الكتاب المقدس، الله نار. وما لم نكن مستعدين لتسليم أنفسنا، من دون أيّ تحفظ، للنار الإلهية ونصبح تلك العليقى الملتهبة في الصحراء، التي تلتهمها النيران ولا تحترق، ستلفحنا الحرارة، لكون خبرة الصلاة تُعرف فقط من الداخل، ولا يجوز لنا أن نتلاعب بها.

ينتج من الاقتراب من الله اكتشاف جماله والمسافة التي بيننا وبينه. كلمة «مسافة» ليست ملائمة لأنّ الله مقدس ونحن خطاة. وتحديد مفهوم المسافة يكون في موقف الخاطئ إزاء الله . يمكننا مقارنة الله فقط، إذا فعلنا ذلك ونحن نشعر أنّنا ذاهبون إلى الدينونة.

إذا أتينا إليه بعد أن نكون قد حكمنا على أنفسنا، إذا أتينا إليه لأننا نحبه، رغم كوننا غير أمناء وغير مخلصين، إذا أتينا إليه ونحن نكنّ له حباً جمّاً، عند ذاك نحن ننفتح عليه وهو يفتح علينا ولن يبقى أيّ بعد بيننا. الربّ يتقرّب منّا بفعل محبّته الشفوق. ولكن إذا وقفنا أمام الله بكلّ فخرواعتزاز وكبرياء وعزم، وإذا وقفنا أمامه كما لو كان هذا حقّاً مكتسباً لنا، وإذا طرحنا عليه الأسئلة فالمسافة التي تفصل بين الخليقة والخالق تصبح غير محدودة ولا نهاية لها. يعتبر البعض أنّ هذه المسافة، بهذا المعنى، نسبيّة. عندما وقف رئيس الملائكة أمام الله ليستجوبه، وفي

الوقت الذي طرح فيه سؤاله، لا بهدف الاستيضاح بتواضع، بل بغية دفع الله ليعطي حسابًا، وجد نفسه على مسافة غير محدودة من الله. الله لم يتحرك، وكذلك الشيطان، ومع ذلك ومن دون أية حركة تباعدا حتى اللانهاية.

عندما نقارب الله، يتّضح لنا، تمامًا، التباين بين ما هو عليه وما نحن عليه. قد لا نعي هذا إذا كنّا نعيش بعيدين عن الله، وبتعبير آخر، إذا كان حضوره ضعيفًا أو كانت صورته باهتة في مخيلتنا وإدراكنا. إلا أنّنا كلّما اقتربنا من الله ازداد بروز الفوارق. وما يجعل الخطأ يدركون خطيئتهم، ليس ذلك التفكير الدائم بالخطيئة، بل رؤية مجد الله وقداسته تجعلهم يعون خطيئتهم. بعيدًا عن الله وحضوره، تغدو الفضائل والرزائل لا قيمة لها ولا معنى، ولا تكتسب هذه قوّتها وعمقها إلاّ بمقابل الله وحضوره.

في كلّ مرّة نقرب من الله، نواجه الحياة أو الموت. إنّها الحياة إذا أتينا إليه بروح نقيّة ومتجدّدة به، وهو الموت إذا أتينا إليه من دون روح مؤمنة خاشعة وقلب منسحق. إنّ الموت إذا أتينا بكبريائنا وغطرستنا. لذا وقبل أن نشعر في مغامرة الصلاة المثيرة هذه، يمكننا أن نوّكد بحزم أنّ لا شيء يكون أكثر معنى وقيمة وإلهامًا ورهبة من ملاقاته الله. من الضروري أن ندرك أنّنا سنخسر حياتنا في هذا السياق ويموت فينا آدم القديم. نحن مرتبطون عاطفيًا بالرجل العتيق، نخشاه، ومن الصعب جدًّا، ليس فقط في البدء ولكن بعد سنوات، أن نشعر أنّنا تمامًا إلى جانب المسيح ضدّ آدم

العتيق.

الصلاة مغامرة تنتج منها مسؤوليات جديدة؛ طالما نحن جهّال لا يُطلب منا شيء. وما أن نعرف القليل حتّى نُسأل عنه ونصبح مسؤولين عن طريقة استخدام هذه المعرفة. قد تكون عطية، إلا أنّنا مسؤولون عن كلّ جزء من الحقيقة التي اكتسبناها. وبما أنّها غدت ملكنا، فنحن لا نستطيع تركها نائمة، وعلينا أن نجعلها جزءًا من تصرّفنا، وبهذا المعنى نحن نُسأل عن الحقيقة التي فهمناها.

بشعور الخوف والتعبّد والتكريم الأسى نقارب مغامرة الصلاة، وينبغي لنا أن نكون على مستواها على أكبر قدر ممكن من الدقّة والحرص. لا يكفي أن نتمدّد على كرسي ونقول: «الآن أنا أضع نفسي في موقع عبادة وتكريم بحضور الله». علينا أن نعي أنّه لو كان المسيح يقف أمامنا لكنّا تصرّفنا بشكل مغاير. ينبغي لنا أن نتعلّم كيف نتصرّف بحضور الربّ غير المرئيّ كما لو كان الربّ منظورًا.

هذا يقتضي أولاً موقفًا ذهنيًا ينعكس على الجسم كلّهُ. إذا كان المسيح أمامنا، ووقفنا أمام ناظره بشكل واضح، ذهنيًا وجسمًا معًا، لشعرنا بالوقار وبخوف الله، بالإيمان وربّما بالرعب، لكن بالتأكيد لن نكون متهاونين في تصرّفنا.

خسر العالم المعاصر، إلى حدّ كبير، معنى الصلاة، والموقف الجسديّ أصبح ثانويًا في تفكير الناس، مع أنّه ليس ثانويًا البتّة. نحن ننسى

أننا لسنا روحًا تتخذ من الجسد مسكنًا لها، بل نحن كائن بشريّ مؤلّف من جسد وروح، ونحن ندعى، وفق القديس بولس الرسول إلى تمجيد الله بالروح والجسد، أجسادنا وأرواحنا مدعوّة لأن تمجّد الله (١ ك ٢٠: ٦)، فمجدّوا الله بأجسادكم.

مرارًا كثيرة لا تكون للصلاة أهميّة كبيرة في حياتنا، ولا نترك لها مجالًا واسعًا، بحيث تكون إضافة إلى أشياء أخرى كثيرة. نحن نرغب في أن يحضر الله، ليس لأنّ لا حياة لنا من دونه، وليس لأنّه القيمة الأسى، بل لأنّه من الجيّد بمكان، إضافة إلى كلّ الفوائد التي نجنّها، أن يكون الله حاضرًا. هو يزداد على حاجتنا، وعندما نبحث عنه بهذه الروحيّة لا نجده. ورغم عدم تحمّل كلّ ما قيل، تبقى الصلاة، على خطورتها، الطريقة المثلى للمضي قدمًا نحو تحقيق ملء دعوتنا لنكتسب إنسانيّة كاملة، ما يعني أن ندخل في شركة كاملة مع الله، وتاليًا ما يسمّيه القديس بطرس المشاركين في الطبيعة الإلهيّة.

المحبّة والصدّاقة لا تنموان في حال لم نكن مستعدّين للتضحية بالغالي والنفيس من أجلهما. وبالطريقة ذاتها، علينا أن نتحضّر لندع جانبًا أمورًا عديدة، لنفسح في المجال أمام الله فنعطيه المكانة الأولى. «أحبب الربّ إلهك بكلّ قلبك، وكلّ نفسك، وكلّ قوّتك وكلّ ذهنك» (لوقا ١٠: ٢٧). تبدو هذه الوصيّة سهلة للغاية، ومع ذلك، تحمل هذه الكلمات معنى أكبر وأعمق. نعلم جميعًا ماذا يعني أن يحبّ المرء شخصًا من كلّ قلبه، ونعرف

البهجة التي يشعر بها لمجرّد التفكير بمن يحبّ، والدفع الذي يمنحه لقاء المحبّين. بهذه الطريقة ينبغي أن نحبّ الله، وكلّ مرّة يذكر فيها اسمه يجب أن يفعم قلبنا وروحنا بحرارة لا متناهية. على الله أن يبقى على الدوام في أذهاننا، في حين أنّنا، حقيقة، نفكّره فقط لمأماً.

أمّا بالنسبة إلى محبة الله من كلّ قوّتنا، فنحن نستطيع أن نقوم بها، فقط، إذا أبعدنا عنّا كلّ ما هو ليس لله. بواسطة جهدنا وإرادتنا، علينا أن نلتفت دومًا إلى الله، إن في الصلاة، وهذه طريقة سهلة لأنّ ذهننا، حينها، يكون متجهًا نحو الله، أو في العمل الذي يتطلّب تدريبًا، لأنّ عملنا أيضًا يتّجه إلى الله.

قطع المجوس طريقًا طويلًا، ولا أحد يعلم المشقات التي تكبّدوها. كلّ واحد منّا يسافر مثلهم. كانوا محمّلين بالهدايا، الذهب للملك، اللبان للإله والمرّ للإنسان الذي سيتألّم ويموت. أين سنجد الذهب واللبان والمرّ، نحن الذين ندين بكلّ شيء لله؟ نعلم أنّ كلّ ما نملك أعطي لنا من الله، حتّى ما نملكه ليس حتمًا لنا إلى الأبد. إذ إنّ كلّ شيء ممكن أن يؤخذ منّا، ما عدا المحبة. وهذا ما يجعل المحبة فريدة وهي هبة نمنحها للآخرين. كلّ شيء آخر، صحّتنا، نباهتنا، ممتلكاتنا قد تؤخذ منّا عنوة، أمّا بالنسبة إلى المحبة، فلا سبيل للحصول عليها إلّا إذا نحن أعطيناها. بهذا المعنى نحن أحرار في أن نحبّ، بخلاف أفعال أخرى تقوم بها روحنا أو يؤدّيها جسدنا.

ومع أنّ المحبة في الأساس هي هبة من الله، لأنّنا لا نستطيع إنتاجها

من نفسنا، فعندما نمتلكها فهي الشيء الوحيد الذي يمكننا تقديمه أو التمسك به. ذكر برنانوس، في مذكرات كاهن ريفي، أنه يمكننا، أيضاً، أن نقدّم كبرياءنا لله «إعط عزة نفسك وكلّ ما تبقى، إعط كلّ شيء». فالغرور الذي يعطى في هذا الإطار يصبح عطية محبة، وكلّ ما هو ناجم عن المحبة يرضي الله. «أحبّوا أعداءكم، باركوا مبغضيك» (متّى ٥: ٤٤)، أمر قد يصعب تنفيذه، لكنّ مسامحة الذين ينزلون الأذى بأحد الأحباء أمر مختلف تماماً. ومع ذلك كلّما كبر حبّنا للذين يتألّمون كلّما ازدادت قدرتنا على المشاركة والمسامحة، وبهذا المعنى نصل إلى أسى درجة من الحبّ عندما نقول «أنا ومحبوبي واحد». وطالما نحن نستعمل ضمير المتكلم «أنا» والضمير الغائب «هو»، فنحن لا نتشارك الألم ولا نتقبّله. والدة الإله عند الصليب، لم تكن تذرف الدمع، كما تظهرها الرسوم الغربيّة، إذ كانت في شركة تامّة مع ابنها، لذلك لم تكن تعترض على أيّ شيء. في طريقها إلى الصلب مع المسيح، كانت متّجهة أيضاً إلى موتها. فالأمّ كانت تكمل في تلك اللحظة ما بدّأته يوم دخول المسيح إلى الهيكل يوم قدّمت ابنها.

من بين كلّ أطفال إسرائيل، قبل هوتضحية دميّة. وهي التي قدّمتها سابقاً، تقبل الآن نتيجة فعلها الطقسيّ الذي يتحقّق فعليّاً. وكما كان في شركة تامّة معها، هي الآن في شركة كاملة معه ولا تعترض على أيّ شيء. إنّها المحبة التي توحدنا مع المحبوب وتجعل المشاركة غير مشروطة وغير متحفّظة، ليس تجاه الألم فقط، بل تجاه الجلاّد أيضاً. لا نستطيع

أن نتخيّل والدة الإله أو التلميذ يوحنا يعارضان إرادة ابن الله الجليّة: «ما من أحد ينتزعها مِنّي ولكيّ أبدلها برضاي» (يوحنا ١٠: ١٨). مات طوعياً، من دون إكراه من أجل خلاص العالم؛ موته كان هذا الخلاص، لذا كلّ من آمن به وأراد أن يكون واحداً معه يستطيع أن يشارك في ألم موته ويتحمّل الآلام معه؛ لكنّه لا يستطيع أن ينبذه ولا أن ينقلب على الشعب الذي صلب المسيح، لأنّ هذا الصلب جاء بإرادة المسيح نفسه.

يمكننا أن نعترض على ألم الآخر أو على موته إذا اتّخذ هو موقفاً ضده، سواء كان على خطأ أو على صواب، أو إذا لم نكن نتوافق مع رأيه أو موقفه من الألم والموت. لكن حينها، حبنا لهذا الشخص هو حبّ غير مكتمل ويُنشئ شرخاً وتباعداً. إنّهُ نوع الحبّ الذي أظهره بطرس عندما كان المسيح في طريقه إلى أورشليم يخبر تلاميذه عن موته، «فانفرد به بطرس وجعل يعاتبه»، إلا أنّ المسيح زجره قائلاً: «انسحب ورائي يا شيطان، لأنّ أفكارك ليست أفكار الله، بل أفكار البشر» (مرقس ٨: ٣٣).

يمكننا أن نتخيّل أنّ زوجة لصّ اليسار كانت تعترض على وفاة زوجها كما اعترض هو أيضاً. من هذه الناحية هناك شركة تامّة بينهما، لكنهما يتّخذان موقفاً خاطئاً.

لكن، أن تشارك المسيح آلامه وصلبه وموته، فهذا يعني أن تقبل من دون تحفّظ كلّ هذه الأحداث بالروحية ذاتها التي أظهرها هو، أي أن تقبلها بإرادة حرّة، وأن تعاني الأسى وأن تكون هناك في الصمت، صمت المسيح

الذي تقطعه بضع كلمات حاسمة، صمت الشركة التامة، وليس فقط صمت الشفقة، بل صمت الرحمة الذي يسمح لنا بالاندماج الكامل مع الآخر، فتكون هناك حياة واحدة وموت واحد.

في مناسبات عديدة عبر التاريخ، شهد الناس اضطهادًا ولم يخافوا، بل تقاسموا العذاب ولم يحتجّوا. وعلى سبيل المثال، القديسة صوفيا الأم التي وقفت مع بناتها الثلاث، إيمان ورجاء ومحبة، مشجعة إياهن على الموت والشهادة. وهناك العديد من الشهداء الذين تساعدوا على الموت ولم ينقلبوا قطّ على معذبهم. تبرز روح الشهادة عبر عدد من الأمثلة، أولها أنّ هذه الروح لا يهزمها الألم أو الظلم.

في بدء الثورة الروسية سُجن كاهن شاب وخرج من الاعتقال رجلاً محطّمًا، وعندما سئل عمّا تبقى منه أجاب: «لم يبق منّي شيء فقد حرقوا في كلّ شيء، وحدها المحبة عاشت ونجت». الرجل الذي يستطيع أن يقول هذا يتّخذ موقفًا سليمًا، وكلّ من يقاسمه مأساته عليه أيضًا أن يشاركه محبته الراسخة.

وقال أسقف روسيّ إنّهُ امتياز وشرف عظيم أن يموت المسيحيّ شهيدًا، لأنّ الشهيد وحده يوم الدينونة يستطيع أن يقف أمام عرش الله الديان ويقول: «وفقًا لكلمتك ولمثالك أنا غفرت. وأنت لا تستطيع أن تطالبهم بعد اليوم بشيء». وهذا يعني أنّ الذي يستشهد بالمسيح والذي محبته لم يقهرها العذاب، يكتسب قوّة غير مشروطة ليغفر للذين أساءوا

إليه وجلبوا عليه الألم. وهذا يمكن أن يطبّق على مستوى أدنى، على مستوى الحياة اليوميّة. فكلّ واحد يقاسي الظلم على يد شخص آخر قد يسامح أو يرفض أن يسامح. لكن، هذا سيف ذو حدين، فأنت إن لم تسامح وتغفر فلن يُغفر لك.

الكاثوليك الفرنسيّون، بفضل إحساسهم القويّ بالعدل وبمجد الله، يعون الغلبة التي يحقّقها المسيح عبر آلام الشعب. ومنذ العام ١٧٩٧ نشأت هيئة للتعويض عن الأضرار، التي بفعل الإيمان الدائم بالأسرار المقدّسة تطلب الغفران عن كلّ الجرائم المرتكبة في العالم، ومسامحة الخطاة بفضل صلوات ضحاياهم. هذه الهيئة تربويّة أيضًا وتهدف إلى تقوية روح المحبّة عند الأطفال والراشدين.

نموذجيّة هي قصّة الجنرال الفرنسيّ موريس ديلي، الذي أسر رجاله، خلال الثورة الفرنسيّة، بعض عناصر المتمرّدين الزرق وأرادوا إعدامهم. رضح الجنرال على مضض لهذا القرار، لكنّه أصرّ على أن يتلو عناصره، بصوت عالٍ، الصلاة الرّبانيّة. وهذا ما فعلوه وعندما وصلوا إلى مقطع «واترك لنا ما علينا كما نترك نحن لمن لنا عليه»، فهم الرجال الغرض وبكوا ثمّ أخلوا سبيل الأسرى. وفي وقت لاحق من العام ١٧٩٤ قتل المتمرّدون الزرق الجنرال موريس ديلي.

جان دانييلو، الكاتب الفرنسيّ اليسوعيّ، قال في كتابه «الكفّار المقدّسون» إنّ الألم هو الرابط بين الصالح والخاطئ، فالأوّل هو الذي

يتحمّل العذاب، والثاني هو الذي يوقع الظلم. ولولا وجود هذه الصلة، لتوسّعت الهوة بين الطرفين وبقياً على خطّين متوازيين من دون أن يلتقيا. وفي هذه الحالة لن تكون للصالح سلطة على الخاطئ، لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يتعامل مع شخص لا يلتقيه.

الفصل الثاني

الصلاة الربّانية

مع أنّ الصلاة الربّانية بسيطة جدًّا وتردّد كثيرًا، إلّا أنّها تشكّل معضلة كبرى إضافة إلى كونها صلاة صعبة جدًّا. إنّها الصلاة الوحيدة التي تركها لنا الربّ. وعند قراءة أعمال الرسل نجد أنّ لا أحد يتلوها، وهذا ما لا يتوقّعه أحد، بخاصّة بعد قراءة الكلمات التي قالها الرسول لوقا في الآية (١١: ١) «يا ربّ علّمنا أن نصليّ كما علّم يوحنا تلاميذه». وإذا لم تذكر هذه الصلاة في الأعمال، فهذا لا يعني أنّ الناس لم يردّدوها. وبمعنى آخر، الصلاة الربّانية ليست مجرد كلمات فقط، بل نمط حياة على شكل صلاة. إنّها الصورة لارتقاء الروح من العبوديّة إلى الحرّيّة. الصلاة مبنية بدقّة وعناية، إذ يمكننا تحليلها إمّا منذ البدء من الكلمات الأولى أو من النهاية. بالتأكيد الأسهل هو أن نبدأ بالتدرّج من خارج الصلاة إلى داخلها، مع أنّه بالنسبة إلى يسوع المسيح والكنيسة، الطريقة المعاكسة هي الصحيحة. إنّها صلاة البنوّة «أبانا»، وبمعنى آخر مع أنّها تستخدم لمقاربة الله،

إلاّ أنّها تعبّر بأسلوب واضح عن العلاقة مع من هم في كنيسة الله، وهم من طريق المسيح وجدوا السبيل إلى أبيهم، لأنّه بواسطة المسيح وحده وبه نصّبح أولادًا لله.

هذا التعليم حول الحياة الروحيّة يُفهم بشكل أفضل، عندما يوضع بالتوازي مع قصّة الخروج وضمن خبرة التطويبات. انطلاقًا من الكلمات الأخيرة من الصلاة ووصولاً إلى الأولى، نلاحظ أنّها في خطّ تصاعديّ. نقطة انطلاقنا في النهاية تحدّد بوضوح وضع العبوديّة، أمّا الكلمة الأخيرة في البدء فتبيّن حالة بنوّتنا.

شعب الله الذي جاء حرّاً إلى بلاد مصر أخذ في الأسر تدريجاً. وظروف الحياة التي عاشها أوصلته إلى العبوديّة، فالعمل ازداد أكثر فأكثر صعوبة، وارتفعت نسبة الشقاء والتعاسة. لكنّ هذا لم يكن كافياً لجعله يتحرّك نحو الحرّيّة الحقيقيّة. فإذا تخطّى البؤس نقطة معيّنة، قد يقود إلى التمرد والعنف، إلى محاولة الهروب من الحالة الأليمة التي لا تطاق. لكن، أساساً لا العصيان ولا الهروب يحزّران الإنسان، لأنّ الحرّيّة هي أولاً حالة داخلية بالنسبة إلى الله والذات والعالم المحيط. وفي كلّ مرّة حاول اليهود مغادرة البلاد أنزلت عليهم أعباء ومهمّات كبرى. وعندما كُلفوا صناعة الآجر، لم يُعط لهم التبن اللازم، وقال لهم فرعون «ليذهبوا وجمعوا لأنفسهم تبنًا (خروج ٥: ٧)، وليثقل العمل على أولئك الناس فيشتغلوا به». أراد فرعون أن يستنزف طاقتهم وينهك قواهم لمهتمّوا أكثر بعملهم، ولا يعود عندهم

الوقت ليفكروا بالعصيان والخلاص. بالطريقة ذاتها، لا أمل لنا، طالما نحن مأخوذون ومفتونون بأمر هذا العالم أي الشيطان، مع كل ما أوتي من سلطان لاستعباد الأرواح البشرية والأجساد وإقصائها عن الله الحي. ما لم يحضر الله بنفسه ليخلصنا فلن يكون هناك خلاص بل عبودية أبدية. والكلمات التي نجدها في الصلاة الربانية مخصصة لهذا الغرض «نجنا من الشرير». الخلاص من الشر هو تمامًا ما حصل في أرض مصر عبر موسى، وما حدث في المعمودية بقوة الله المعطاة لكنيسته. كلمة الله تدوي في هذا العالم منادية الجميع إلى الحرية، وتمنح الرجاء الآتي من السماء لكل الذين فقدوا الأمل على هذه الأرض. كلمة الله هذه تبشروا وتتردد صداها في النفس البشرية جاعلة الإنسان موعوظاً في الكنيسة، يسمع النداء ويأتي لينصت إلى كلام المسيح.

عندما يصمم الموعوظ على أن يصبح رجلاً حراً في ملكوت الرب، تتخذ الكنيسة بعض الإجراءات. ما الفائدة من سؤال عبد، ما يزال تحت سلطة سيده، إذا كان يريد أن يتحرر؟ إذا تجرأ وطلب الحرية الممنوحة له، سيعلم أنه سيعاقب بضراوة لحظة وجوده وحده مع سيده. وبسبب الخوف والركون إلى حياة العبودية لا يستطيع الإنسان أن يطالب بالحرية قبل أن يتحرر من سيطرة الشيطان. لذا وقبل أي طلب، وبقلب مفعم بالرجاء بالخلاص الإلهي يتحرر الإنسان من قبضة الشيطان. هذا هو معنى صلاة الاستقسام، أي إخراج الأرواح الشريرة، التي تتلى في بدء

خدمة المعمودية في الكنيستين الأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة.

فقط عندما يتحرّر الإنسان من قيود العبوديّة يُطلب منه أن يرفض الشيطان ويقبل المسيح. وبعد جواب حرّ تضمّه الكنيسة إليها في جسد المسيح. الشيطان يريد عبيدًا لكنّ الله يريد أحرارًا يختارونه بملء إرادتهم. الشرير حسب ما جاء في سفر الخروج هو مصر وفرعون وكلّ القيم المرتبطة بهما، وبالتحديد توفير الطعام والإبقاء على الحياة شرط أن يكونوا عبيدًا خاضعين وخنوعين. أمّا بالنسبة إلى فعل الصلاة الذي هو الأساس، التمرد ضدّ العبوديّة الذي يجدي أكثر من حمل السلاح هو في الوقت عينه، عودة إلى الصواب، إلى المسؤولية، إلى العلاقة مع الله.

إذا الخطوة الأولى التي بها بدأ الخروج ونحن أيضًا نقوم بها، هي أن نكتشف العبوديّة، وأنّ هذه الحالة لا يمكن أن نجد لها حلاً بالعصيان أو الهروب، لأننا إذا ولّينا فارّين أو تمرّدنا سنبقى عبيدًا، وما لم نعد ترتيب أنفسنا في ما يتعلّق بالله وبكلّ أوضاع الحياة، بالطريقة التي تعلّمناها في التطويبة الأولى، «طوبى لفقراء الروح فإنّ لهم ملكوت السماوات». الفقر بحدّ ذاته كما حالة العبوديّة ليس طريقًا إلى ملكوت الله. والعبد يمكن أن يُحرّم ليس فقط من الخيرات الأرضيّة، بل أيضًا من الخيرات السماويّة. ففر كهذا قد يكون أكثر فداحة من مجرد الحرمان من حاجات الحياة الأرضيّة. يقول القدّيس يوحنا الذهبيّ الفم إنّ الفقير ليس هو من لا يمتلك شيئًا، لكن هو من يريد الأشياء التي لا يملكها.

الفقر ليس متأصلاً في ما نملك أو لا نملك، بل بالدرجة التي نصبو فيها ونتوق إلى ما هو بعيد المنال. عندما نفكر في وضعنا الإنسانيّ يمكننا أن نكتشف بسهولة أننا فقراء تماماً ومعدومون، لأنّ أيّ شيء نملكه هو ليس لنا مهما كنّا أثرياء. وعندما نحاول أن نقبض على أيّ شيء، نكتشف أنّه سرعان ما يختفي. لا يتأصّل وجودنا إلّا في كلمة الله المبدعة وذات السلطة المطلقة التي دعتنا من العدم إلى الوجود. الحياة والصحة التي نملكها لا نستطيع الإبقاء عليها. ليس الصحة فقط بل العديد من صفاتنا العقليّة، وعلى سبيل المثال، فإنّ رجلاً حادّ الذكاء وبسبب انفجار شريان دقيق في رأسه يفقد قواه العقليّة وينتهي فكريّاً. في مجال مشاعرنا، ولسبب مقبول أو غير مقبول، لتعب أو مرض، لا يمكننا في اللحظة المناسبة، وإرادتنا، أن نشعر بالعطف أو التعاطف مع الآخر، أو قد نذهب إلى الكنيسة ونبقى حجراً. هذا هو الفقر الحقيقيّ ولكن هل يجعلنا هذا أبناء المملوكوت؟ لا، لأنّه في كلّ لحظة من حياتنا نشعر بحالة من البؤس وأنّ كلّ الأشياء تهرب منّا، وإذا أدركنا فقط أنّنا لا نملكها حقّاً، فهذا لا يجعلنا أطفالاً سعيدين في ملكوت المحبة الإلهيّة، بل ضحايا وضع نكرهه، ولا طاقة لنا عليه. وهذا يعيدنا إلى عبارة «فقراء بالروح».

الفقر الذي يفتح ملكوت السماوات يكمن في معرفة إذا كان ما أملكه ليس حقّاً لي، فإذا كلّ ما هولي هو هديّة محبة إلهيّة أو بشريّة وهذا يغيّر وجه الأمور. إذا وعينا أنّه لا وجود لنا في أنفسنا ومع ذلك نحن موجودون

ونستطيع القول إنّ هناك محبة إلهية ثابتة لا تزول. إذا رأينا أنّ ما نملكه لا نستطيع، ولا بحال من الأحوال، أن نأخذه عنوة، إذاً يكون كلّ شيء محبة إلهية مجسّدة في كلّ حين. وعندها يكون الفقر في أساس كلّ فرح كامل، لأنّ ما نملكه هو دليل على المحبة. يجدر بنا عدم محاولة اقتناء الأشياء، وأن نعتبر أنّ ما نملكه ليس سوى هبة من الله. فإذا كان الشيء يخصّني فهو غريب إذاً عن علاقة الحبّ المتبادل. وإذا كان يخصّ الله وأنا أملكه من يوم إلى آخر فهذه محبة إلهية مستمرة. ثمّ نخلص إلى فكرة سارة: «شكراً لله أنّ هذا الشيء ليس لي، لو كان لي فهذا يعني أنّي أملكه ولكن للأسف من دون محبة».

هذا النوع من العلاقة هو ما يسمّيه الإنجيل ملكوت الله. فقط الذين ينتمون إلى الملكوت والذين يتلقّون كلّ الأشياء من الملك في محبة متبادلة لا تبتغي الثروة، لأنّ الغنى يعني فقدان المحبة رغم كلّ ما نملك. اللحظة التي نكتشف فيها الله وأنّ كلّ شيء هو له ومنه، عندها نبدأ بدخول هذه المملكة الإلهية ونكتسب الحرية.

عندما تبصّر اليهود بتعاليم موسى وأدركوا أنّ حالة العبوديّة لها علاقة بالله ولم تكن فقط من صنع الإنسان، عادوا إلى الله. وهذا ينطبق علينا جميعاً، لأنّه عندما نعي أنّنا عبيد ومعدّمون، وندرك أنّ هذه الحالة تسمح بها الحكمة الإلهية، وأنّ كلّ شيء خاضع للسلطة الإلهية، عندها نلتفت إلى الله لنقول «نجّنا يا ربّ من الشرير».

وكما دعا موسى اليهود للهروب من بلاد مصر وليتبعوه في ظلام الليل وعبور البحر الأحمر، هكذا كلّ إنسان مدعو إلى الصحراء حيث تبدأ مرحلة جديدة. هو حرّ لكنّه لا يتمتّع بعد بمجد الأرض الموعودة، لأنّه أخذ معه من أرض مصر روح العبوديّة وعادات العبد وإغراءاته. كما أنّ تربية الرجل الحرّ تستلزم وقتاً أطول من اكتشاف العبوديّة. تبقى روح العبوديّة قريبة جدّاً ومعاييرها موجودة ولها سطوة، فالعبد له مكان يسند إليه رأسه، وطعامه مؤمّن. العبد له مستوى اجتماعيّ، مهما كان وضيعاً، وهو آمن لأنّ سيّده مسؤول عنه. أن يكون الإنسان عبداً، مهما كان هذا الوضع مؤلماً ومذلاً ومؤذيّاً، يبقى على شيء من الأمان. في حين أنّ الإنسان الحرّ هو في حالة من عدم الأمان التامّ، فنحن نأخذ مصيرنا في أيدينا، وعندما تكون حرّيتنا متأصّلة في الله، عند ذلك فقط نشعر بالأمان الحقيقيّ والفريد.

هذا الشعور بعدم الأمان يشار إليه في سفر صموئيل عندما طلب اليهود إلى النبيّ أن يعيّن لهم ملكاً. لقرون عديدة كانوا يهتدون بالله أيّ بأشخاص قديسين عرفوا سبل الله، كما يقول عاموس (٣: ٧) النبيّ هو من يكشف إلهه سرّه له. وفي زمن صموئيل اكتشف اليهود أنّ طاعة الله وحده والاتكال عليه فقط، بالمعنى الدنيويّ، تعني عدم الأمان لكونها ترتبط بالقداسة والتكريس وقيم أخلاقيّة صعبة التحقيق، لذلك طلبوا إلى صموئيل أن يعطيهم ملكاً «لأنّنا نريد أن ننعم بالأمان كسائر الأمم».

لا يريد صموئيل أن يوافق على ما يراه ارتداداً، لكنّ الله قال له:

«اسمع لكلام الشعب في كلّ ما يقولون لك، فإنّهم لم ينبذوك أنت، بل نبذوني أنا من ملكي عليهم» (١ صم ٨: ٧). وتلي ذلك صورة عن حياتهم في ما بعد: «هذه أحكام الملك الذي يملك عليكم: يأخذ بنيكم ويخصّهم بنفسه لمركبته وخيله فيركضون أمام مركبته... ويتّخذ بناتكم عطّارات وطبّاقات وخبّازات... وأبى الشعب أن يسمع لكلام صموئيل وقال: كلاً بل يملك علينا ملك» (١ صم ٨: ١٩). هم يريدون أن يشترّوا الأمان على حساب الحرّيّة. ليس هذا ما يريدّه الله لنا وما يحدث هو نقيض أحداث الخروج. إرادة الله هي أن يرذل الإنسان أمان العبوديّة ويحلّ مكانه عدم الطمأنينة. هذا وضع صعب لأنّه في البدء لا نعرف كيف نصبح أحراراً ولا نريد أن نبقى عبيداً بعد اليوم. تذكّروا ماذا جرى لليهود في البرّيّة، وكم من مرّة تأسّفوا على الوقت الذي كان متوفّراً آنذاك. كم من مرّة تذرّوا لأنّ لا سقف فوق رؤوسهم ولا طعام عندهم. يعولّون على إرادة الله من دون أن يتعلّموا الاتكال عليه بالكامل، لأنّ الله يهبنا النعمة لكنّه يترك لنا أن نصير خلائق جديدة.

ومثل اليهود في مصر، نحن أمضيّنا حياتنا عبيداً، ولسنا بعد أحراراً في أعماقنا وإرادتنا، وإذا تركنا على هوانا قد نسقط في التجربة. وهذه الكلمات «لا تدخلنا في التجربة» تذكّرنا بأربعين سنة قضاها اليهود لعبور المسافة القصيرة بين أرض مصر وأرض الميعاد. لقد أخذوا وقتاً طويلاً لأنّهم تحوّلوا عن الله وتاهوا عن الطريق السليم. الدرب الوحيد الذي بواسطته

نصل إلى الأرض الموعودة هو في اتباع خطى الرب. وعندما يعود قلبنا إلى مصر نرجع أدراجنا فنضلّ الطريق. لقد حُرّرنا بفضل رحمة الله، ونحن سائرون على الطريق، لكن من يقول إنّه لا يرجع على عقبه باستمرار أو يتحوّل عن السبيل القويم؟ لا تدخلنا في التجربة، لا تدعنا نقع من جديد في حالة العبوديّة.

متى وعينا استعبادنا وانتقلنا من النحيب والإحساس بالتعاسة إلى شعور بانكسار القلب وفقر الروح، عندها أسرنا في أرض مصر سيكون جوابه في التطويبات التالية: «طوبى للحناني فإنّهم سيعزّون، طوبى للودعاء فإنّهم سيرثون الأرض». هذا الحزن الذي هو نتيجة اكتشاف المملوكوت، واكتشاف مسؤوليّة الإنسان وإدراك مأساة العبوديّة هو أكثر مرارة من الاستعباد ذاته. العبد يتشكّى من حالة خارجيّة؛ هذا المنتحب، الذي يباركه الله، لا يتدمّر، فقلبه منسحق ويعلم أنّ الاستعباد الخارجي إنّما هو تعبير عن أمر أكثر مأساويّة، وهو الاستعباد الداخلي والمعاناة من الانفصال عن الله. لا شيء يمكن إجراؤه للهروب من هذه الحالة إلا الوصول إلى الوداعة.

الوداعة كلمة صعبة اكتسبت دلالات كثيرة، ورغم أنّها نادرة الممارسة، إلا أنّنا لا نستطيع أن نتغافل عن خبرة الأشخاص الودعاء التي قد تعطينا تفسيراً لمعنى الكلمة. نجد في ترجمة ج.ب. فيليبس: «مغبوطون الذين لا يطلبون شيئاً»، ما يعني «مباركون الذين لا يحاولون اقتناء

الأشياء». عندما لا تريد امتلاك شيء فهذا يعني أنك حرّ. هناك تفسير آخر للوداعة في الترجمة من اليونانية إلى السلافية وتعني التروّض. فالإنسان أو الحيوان المروّض لا يهلع من العقاب ويخضع لسلطة سيّده فحسب، إنّما اكتسب صفة جديدة تساعده على الهروب من القهروالإكراه.

على أبواب خلاصنا من العبوديّة في مصر، تقف حالة التدجين؛ بمعنى آخر علينا أن نتعرّف إلى الحالة التي نحن فيها، بالعمق، بالمغزى، بحضور الإرادة الإلهيّة، ولن يكون هناك فرار أو عصيان، بل حركة يرشدنا إليها الله، تبدأ في مملكة السماء التي في داخلنا وتنمو لتصل إلى مملكة الأرض. إنّها مرحلة تأرجح وصراع داخليّ، «لا تدخلنا في التجربة يا ربّ، نجّنا من المحنة، وأعتنا في جهادنا».

ونحن الآن على وشك اتّخاذ خطوة جديدة. لنتذكّر سفر الخروج عندما أدرك اليهود أنّهم ليسوا فقط عبيدًا، لكنّهم شعب الله الذي استُعبد بسبب انحرافه الأخلاقيّ. كان عليهم أن يجازفوا، لأنّ ما من إنسان يكتسب حرّيته من المستعبد. وكان عليهم أن يجتازوا البحر الأحمر، ولكن ما بعد البحر الأحمر لم يصلوا إلى الأرض الموعودة، بل إلى صحراء قاحلة حارقة، وأدركوا ذلك وعلموا أنّه عليهم أن يعبروها بعد صعوبات ومخاطر جمّة. وهذه هي حالتها عندما نقرّر أن نقوم بأية خطوة قد تحرّرنا من العبوديّة. علينا أن نعي أنّنا سنواجه بالعنف والتضليل، وبالأعداء الداخليين أي بعاداتنا القديمة وتوقنا إلى الأمان، وأنّ لا وعود أمامنا سوى الصحراء.

وبعد ذلك بكثير، الأرض الموعودة وعلينا أن نتحمّل مخاطر الطريق.

الخطّ الفاصل بين مصر والصحراء، بين العبوديّة والحريّة هو اللحظة التي نقرّر فيها أن نكون شعبًا جديدًا يتحلّى بأخلاقيّة جديدة. بالمصطلح الجغرافيّ كان الحدّ الفاصل هو البحر الأحمر. أمّا بالنسبة إلى الصلاة الرّبانيّة فهو «أترك لنا ما علينا كما نترك نحن لمن لنا عليه». عندما نغفر للآخرين فنحن نمسك بزمام خلاصنا، لأنّ عمل الله مرتبط بما نقوم به نحن، وهذا مهمّ للغاية في الحياة اليوميّة. فإذا كان هذا الشعب الخارج من مصر نحو الأرض الموعودة، آخذًا معه مخاوفه ونقمته وحقده وحزنه فسيبقى عبدًا في أرض الميعاد ولن يكون قطّ حرًّا. لهذا السبب وعند الخطّ الفاصل بين تجربة النار وتضليل العادات القديمة لا تجد العلاقة مع الله نوعًا من الراحة والرخاء. وعندما تسامح، المكيال الذي تستعمله يرتدّ عليك، وعندما تسامح يغفر لك، وما لا تغفره يمسك عليك. هذا لا يعني أنّ الله لا يريد أن يغفر، لكن إذا نحن رفضنا التسامح نرفض المحبّة أيضًا. لذا لن يبقى لنا مكان في الملكوت. لا نستطيع أن نتقدّم إذا لم نحصل على الغفران. ولن ننال غفران خطايانا إذا نحن لم نغفر للذين أساءوا إلينا. هذا موضوع دقيق وواقعي ولا يمكن لأحد أن يتخيّل أنّه ينتهي إلى مكلوت الله إذا كان في قلبه ذرّة من عدم التسامح. أن تسامح أعداءك هي الخطوة الأولى وأهمّ ميزة مسيحيّة أساسيّة. وإذا أخفقت في هذا فأنت لست مسيحيًّا بعد وما تزال تائهاً في صحراء سيناء اللاذعة.

إلا أنّ المغفرة أمر صعب التحقيق جدًّا. ما نسمّيه الغفران يكون أحيانًا وضع الآخر قيد التجربة، ومحظوظون هم الذين يخضعون للاختبار. نحن ننتظر بفارغ الصبر دليلًا على التوبة ونريد أن نتأكّد أنّ التائب تغيّر فعلاً، إلا أنّ هذا الوضع قد يدوم العمر كلّهُ، وموقفنا يناقض تمامًا كلّ ما يعلمه الإنجيل ويأمرنا بإنجازه. إذاً قانون الغفران ليس هذا الجدول على الحدود بين العبوديّة والحريّة، إنّهُ أَعرض وأعمق، إنّهُ البحر الأحمر. اليهود لم يجتازوه بجهدهم الخاصّ وبمراكب من صنع البشر، لقد انشقّ البحر الأحمر بقدرة الله، والله هو الذي قادهم عبر البحر. ولكن أن يقود الله خطاك يعني أنّه عليك أن تتشارك نوعيّة هذا الإله التي هي القدرة على المغفرة. سيتذكّر الله، بهذا المعنى، متى أخطأنا، وحتى نتغيّر، أن يأخذ في الاعتبار أنّنا ضعفاء وخائرو القوى. لكنّه لن ينسى البتّة ما يتعلّق بالاتهام والإدانة، ولن يثير هذا الموضوع ضدّنا. الربّ سيربط نفسه بنا، بحياتنا، وسيكون حمله أكبر، وصليبه أثقل، ويصعد الجلجلة من جديد، ما نعجز نحن عن إنجازه.

أن نكون قادرين على قول الجملة الأولى «نَجِّنَا من الشرير»، يتطلّب تقويمًا جديدًا للقيم، وموقف كهذا لا يمكن أن نتّخذه من دون بكاء غير مدعوم بتغيير داخليّ فينا. نشعر بحنين، غير قابل للتحقّق بعد. أن نسأل الله أن يحمينا من التجربة هو أن نسأل تغييرًا جذريًا في موقفنا. وأن نكون قادرين على القول «اغفر لي كما أغفر أنا» يشكّل صعوبة كبرى، إنّها

معضلة من أكبر معضلات الحياة.

هكذا إذا لم تكن مستعداً لتترك وراءك كلّ تحفّظ ضدّ كلّ من كان سيّداً عليك أو أمراً لا يمكنك أن تعبر. وإن كنت قادراً على الغفران، أي أن تترك وراءك في أرض العبوديّة كلّ ذهنيّة خائفة، كلّ طمع وجشع ومرارة، عندئذٍ يمكنك أن تعبر. وبعد ذلك أنت في البريّة المحرقة، لأنّ العبد يأخذ وقتاً طويلاً ليتحرّر.

كلّ ما نملكه كعبيد في أرض مصر سنحرم منه، إذ لا سقف يحمينا ولا ملجأ ولا طعام ولا شيء البتّة، سوى البريّة والله. والأرض ما عادت قادرة على إطعامنا ولا نستطيع بعد اليوم أن نتكل على غذاء طبيعيّ، لذا نحن نصلي «خبزنا الجوهريّ أعطنا اليوم». الله يعطينا خبزنا حتّى عندما نكون تائهين لأنّه لولاه سنموت قبل أن نبلغ حدود الأرض الموعودة. يا الله أبقنا على قيد الحياة، إمنحنا الوقت لنخطئ فنتوب ونسلك الطريق المستقيم. خبزنا اليوميّ هو أحد الطرائق الممكنة لترجمة النصّ اليونانيّ. هذا الخبز باليونانيّة epousion قد يعني اليوميّ، وقد يكون أيضاً الخبز الذي يتخطّى المادّة. آباء الكنيسة ابتداءً من أوريجنس وترتليانوس فسّروا هذا المقطع على أنّه لا يشير فقط إلى الحاجة البشريّة بل إلى الخبز في الإفخارستيا. وما لم نتغذّ بهذه الطريقة الأسراريّة بالخبز الإلهيّ (لأنّنا نعتمد الآن في وجودنا على الله وحده) لا نستطيع أن نعيش (يو ٦: ٥٣).

أرسل الله لشعبه المنّ وأعطاهم الماء من الصخر الذي ضربه موسى

بعضه. هاتان الهبتان هما صورتان عن المسيح. «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة من فم الله». هذا ما ردّده المسيح من العهد القديم (تثنية ٨: ٣) ليخزي الشيطان. «الكلمة» ليس مجرد كلمات لكنّه الكلمة الذي يمجّد إلى الأبد الذي يدعم كلّ الأشياء المخلوقة، هو الكلمة المتجسّد يسوع الناصريّ. وأكثر من ذلك إنّهُ الخبز الذي كان المنّ صورة عنه، الخبز الذي نأخذه في المناولة المقدّسة. المياه التي جرت وملأت السواقي والأنهر بأمر من موسى هي صورة عن الماء الموعودة للسامريّة وعن دم المسيح الذي هو حياتنا.

الخروج صورة معقّدة في ما يتعلّق بالصلاة الرّبّانيّة، وفي التطويبات نجد الترتيب المتعاقب ذاته: «طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ فإنّهم سيشبعون، طوبى للرحماء فإنّهم سيرحمون». في البدء إنّهُ مجرد عطش مادّيّ وحرمان من كلّ الممتلكات الفاسدة، التي هي هبة أرضيّة من الحاكم، دمغة العبوديّة. وعندما يزداد النوح والبكاء في التطوية الثانية، عندما نتّجه إلى الله، يتحوّل الجوع والعطش إلى البرّ. انكشف بُعد جديد للبشر، إنّهُ بُعد الشوق والتحرّق، الذي تحدّده إحدى الصلوات السريّة في الليتورجيا على أنّه «الملكوت الآتي»، عندما نشكر الله الذي أعطانا ملكوته الذي نصبو إليه. في الليتورجيا الملكوت موجود، ولكن في الرحلة عبر الصحراء الملكوت بعيد المنال. إنّهُ في داخلنا، كموقف، كعلاقة، لكن بالتأكيد ليس هو الحياة التي بها نتغذّى ونبقى على قيد الحياة. هناك الجوع

الجسديّ الذي وُلد من ماضينا ومن حاضرنّا، والجوع الروحيّ المولود من مستقبلنا ودعوتنا.

«طوبى للرحماء»، هذه الرحلة ليست وحيدة، في ما يتعلّق بالخروج، كان شعب الله كلّهُ يخرج جنبًا إلى جنب كوحدة مترابطة. في الصلاة الربّانيّة إنّها الكنيسة، البشريّة جمعاء، إنّها كلّ واحد في هذه الرحلة. وهناك شيء بالغ الأهميّة علينا أن نتعلّمه، وبالتحديد الرحمة لكلّ الأخوة الذين يرحلون معنا. وما لم نكن مستعدّين لحمل أثقال بعضنا البعض ولتقبّل بعضنا البعض كما يقبلنا يسوع بالرحمة، فلن نجد طريقنا في البريّة. هذه الرحلة في القيظ، في العطش والجوع، في الجهاد بهدف أن نكون إنسانًا جديدًا، هي زمن رحمة ومحبة متبادلة، وإلّا فلن يصل أحد إلى المكان الذي يعلن فيه ناموس الله، حيث تقدّم ألواح الشريعة. العطش إلى البرّ والكمال يتلازم مع الرحمة تجاه الرفاق الذين يسيرون جنبًا إلى جنب في الحرّ اللاذع والعذاب. هذا العطش وهذا الجوع يتضمّنان إشارة إلى ما هو أكثر من غياب الطعام. عندما يصل اليهود يومًا إلى سفح جبل سيناء، سيكونون قادرين على الفهم وعلى الحياة، لقد روّضوا وصاروا شعبًا واحدًا بوحي واحد وتوجّه واحد ونيّة واحدة. إنّهم شعب الله الذي يتحرّك نحو الأرض الموعودة. وقلوبهم التي اسودّت أصبحت الآن شقّافة وأكثر نقاوة. على سفح الجبل سيعطى كلّ واحد منهم، على قدر قوّته وقدرته، أن يرى شيئًا من الله (لأنّه طوبى لأنقياء القلوب فإنّهم سيعاينون الله)، لكلّ واحد بطريقة مختلفة، تمامًا

كما شاهد التلاميذ يسوع المسيح يتجلى على جبل ثابور، بحسب قدرتهم على الفهم.

في هذه الرحلة تحدث مأساة جديدة إذ يكتشف موسى أنّ اليهود يخونون الدعوة فيكسر ألواح العهد، تلك التي أعطيت بعد ذلك هي ذاتها، لكن لم تكن مماثلة. ربّما يكمن الفرق في حقيقة أنّ موسى لما أحضر الناموس في المرّة الثانية كان وجهه يتلأأ بحيث لم يستطع أحد تحمّل هذا الضياء (خر ٣٤: ٣٠). ولم يتحمّلوا كذلك الربّ الظاهر بمجده وعزّته وعيبره. لقد مُنحوا ما يستطيعون تحمّله، لكنّه كان ناموسًا كتبه موسى (خر ٣٤: ٢٧)، ولم يكن كشفًا الهيئًا عن حبّ خطّم الله بإصبعه (خر ٣١: ١٨). الشريعة تقف في منتصف الطريق بين مخالفة القانون والعفو. هناك ثلاث خطوات في ترتيب مدهش: في التكوين نشاهد لامك العنيف الذي يقول إنّّه إذا جُرح وانزعج سينتقم سبعة بسبعين مرّة (تك ٤: ٢٤). عندما نأتي إلى سيناء يقال لنا العين بالعين والسنّ بالسنّ، ونسمع يسوع يقول سبعين مرّة سبع مرّات عليك أن تغفر لأخيك. هذه هي معايير الثورة البشريّة في مقابل العدل والعفو.

يقول خوميماكوف، اللاهوتيّ الروسيّ من القرن التاسع عشر، إنّ إرادة الله هي لعنة للشياطين، وقانون لخدّام الله وحرّيّة لأولاد الله. هذا صحيح عندما نفحص الترتيب المتدرّج الذي قام به اليهود من مصر نحو أرض الميعاد. رحلوا عبيدًا بعد أن اكتشفوا إمكانيّة أن يصيروا أولادًا لله؛

كان عليهم أن يتخطّوا عقليّة العبد ويحصلوا على منزلة الأبناء. هذا التطوّر حصل بالتدرّج خلال الرحلة الطويلة والمؤلمة والشاقّة. إذ نراهم يتحوّلون ببطء إلى جماعة خدام لله، إلى شعب أدرك أنّ إلهه ما عاد فرعون، بل ربّ الأجناد الذي اعترفوا له بولائهم وطاعتهم له غير المشروطة. وكانوا ينتظرون منه الثواب أو العقاب عارفين أنّه يقودهم نحو ما يفوق معرفتهم إلى مبتغاهم النهائي.

في كتابات النساك المسيحيّين الأوائل، راجت فكرة أنّ الإنسان يجب أن يمرّ عبر هذه المراحل الثلاث، أي العبوديّة والمرتزة والنبوّة. العبد هو من يطيع خوفًا، والمأجور هو من يطيع طمعًا بالمكافأة والابن يعمل بفعل الحبّ. نرى في الخروج كيف أنّ شعب الله صار بالتدرّج أكثر من عبيد ومرتزة، في حين يقف الناموس، جغرافيًا، على حدود الأرض الموعودة. على هذه العتبة، اكتشفوا، كلّ بحسب قدرته وبالعُمق الروحيّ الذي وصل إليه، أنّ إرادة الله وتديبره في هذا القانون يمكن رؤيتهما بطرائق عديدة. إذا أخذنا الشريعة منهجيًا، جملة جملة، فهي مجموعة وصايا: «لا تقتل، لا تسرق...» بهذا المنحى إنّها الشريعة الموضوعة بحسب ذهنيّة العهد القديم. ولكن من جهة ثانية، إذا نظرنا إليها بعين العهد الجديد نجد أنّها تختصر بوصيّتين: حبّ الله وحبّ الإنسان. الوصايا الأربع الأوائل من العشر تعبّر عن حب الله المحسوس، وفي الوصايا الست الباقية عندنا حبّ الإنسان الملموس والمحسوس والعمليّ.

الشرعة هي النظام والانضباط بالنسبة إلى الذين هم ما زالوا في أول الطريق، في طريقهم إلى البنوة، وفي الوقت عينه إنها شرعة العهد الجديد. المشكلة بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين الله والإنسان تكمن في إحلال السلام الإلهي والسلام باسم الله، السلام الذي لا يُبنى على تجاذب متبادل أو تناغم، بل على عناصر أساسية أي البنوة المشتركة، الربّ المشترك، التضامن البشري وتضامننا ضمن الكنيسة. الحبّ الإلهي والحبّ البشري يجب أن يختصرا أولاً في تأسيس العلاقة الصحيحة مع الله والإنسان ومع الذات.

لقد رأينا أنّه، للعيش في الصحراء، الشرط الأساس والمطلق هو الغفران المتبادل. والآن علينا اتّخاذ خطوة أخرى. وحيثما نجد في الخروج الشرعة الأمرة التي تعبّر عن إرادة الله ومشيّته، نجد في الصلاة الربّانية «لتكن مشيئتك». «لتكن مشيئتك» ليست استعداداً مذعناً لتحمل مشيئة الله، كما يحلو لنا أن نعتقد في بعض الأحيان. إنها عبارة تتضمن الموقف الإيجابي الذي يتّخذه من عبر البريّة ودخل الأرض الموعودة، وصمّم على جعل مشيئة الله حاضرة وحقيقية في الأرض كما في السماء.

يقول الرسول بولس إنّنا مستعمرة السماء (فيلبي ٣: ٢٠)، ويعني بذلك مجموعة أناس مدينتهم الأم هي السماء وهم على الأرض، ليخضعوها لله ويجلبوا ملكوت الله ولو على بقعة صغيرة منها. إنّ نوع غريب من الغزو يتضمن كسب الناس إلى مملكة السلام وجعلهم تابعين لأمير السلام

وإدخالهم ملكوت الله. إنّه بالفعل انتصار ووظفر، إنها عملية سلام تجعل منّا خرافًا وسط الذئب، بذارًا ينثره الزارع، علينا أن نموت لنعطي ثمارًا ونطعم الآخرين.

«لتكن مشيئتك» من ناحية كوننا أبناء الله تختلف عن «لتكن مشيئتك» الخانعة أو المقاومة التي رأيناها في بدء الخروج، عندما حاول موسى أن يقود شعبه نحو الحرية. الآن عندنا فكر المسيح، الآن نعرف مشيئة الله، ما عدنا خدًا بل غدونا أصدقاء (يو ١٥: ١٥). العلاقة ليست مهمة، لكنّها عميقة جدًّا تربطنا بعضنا ببعض. هذه هي الحالة التي ندخل بها أرض الميعاد، عندما نقول بطريقة جديدة ومتناغمة عبارة «لتكن مشيئتك». وعلينا عندئذٍ أن نقبل كلّ ما تدلّ عليه لكوننا أبناء الله وأعضاء في الجسم الواحد.

وكما أتى إلى العالم ليموت من أجل خلاص العالم، هكذا نحن منتخبون لهذا الهدف، وقد يكون ذلك على حساب حياتنا وعلينا أن نحلّ السلام حولنا ونؤسّس الملكوت.

هناك فرق بين الله الملك الذي نراه في أرض مصر أو في البريّة الحارقة، وفي الوضع الجديد في أرض الميعاد. أولًا إرادته ستسود مهما كان، والمقاومة التي يبديها الإنسان ستتخطّم. الطاعة تعني الخضوع. ثانيًا التدرّب المتدرّج يظهر أنّ الملك ليس سيّدًا أو أمرًا، لكنّه إله رحمة وطاقته تحوّل كلّ شيء، فلن نبقى عبيدًا له بل شعبه وجيشه. وأخيرًا نكتشف

الملك بكلّ ما في الكلمة من معنى، كما يقول القديس باسيليوس: «كلّ حاكم يستطيع أن يحكم، وحده الملك يمكن أن يموت من أجل أتباعه».. في هذا الكلام هناك مماثلة بين الملك وأتباعه، أي مملكته. وكلّ ما يطرأ على المملكة يطال الملك أيضًا، ليس هناك تماثل فقط، بل فعل حبّ استبداليّ يجعل الملك محلّ مكان شعبه. يصبح الملك إنسانًا ويتجسّد الله. يدخل تاريخ البشريّة ومصيرها، يرتدي البشارة التي تجعل منه جزءًا من العالم الأشمّل مع المأساة التي سبّتها السقوط البشريّ. هويتوغّل إلى عمق أعماق الحالة البشريّة حتّى المحاكمة والإدانة الجائرة والموت، وخبرة خسارة الإله والقدرة على الموت. الملكوت الذي نتحدّث عنه هو ملكوت هذا الملك. وإذا لم نتحدّ معه وبكلّ رويّة هذا الملكوت الذي نفهمه الآن بطريقة جديدة، لن نستطيع أن ندعى أبناء الله أو أن نقول «ليأت ملكوتك». لكن، علينا أن ندرك أنّ الملكوت الذي نطلبه هو الملكوت الذي تحدّده التطويبات الأخيرة: «طوبى للمضطهدين على البرّ، طوبى لكم إذا شتموكم واضطهّدوكم وافتروا عليكم كلّ كذب من أجلي». إذا كان للملكوت أن يأتي فعليًا أن ندفع الثمن الذي تفرضه هذه التطويبات. الملكوت الذي نتحدّث عنه هو ملكوت الحبّ وجميل أن ندخله. ومع ذلك هو ليس لطيفًا لأنّ للحبّ وجهًا مأساويًا يعني موت كلّ واحد منّا، الموت الكامل للأنايّة، الموت على الصليب.

فقط في الملكوت يمكن لاسم الله أن يُقدّس ويُمجّد. لأنّه لا كلماتنا

ولا حركاتنا، حتّى الليتورجيّة منها، تمجّد اسم الله، بل لكوننا في الملكوت الذي هو إشعاع صانعنا ومخلّصنا. وهذا الاسم هو المحبّة، إله واحد في الثالوث.

وكما نرى الآن فإنّ الصلاة الرّبانيّة لها قيمة عالميّة ومعنى، تعبّروا بشكل معكوس عن ارتفاع كلّ روح من أسر الخطيئة إلى ملء الحياة في الله، هي ليست مجرد صلاة، إنّها صلاة المسيحيّين. الكلمة الأولى «أبانا» هي ميزة مسيحيّة. في إنجيل القدّيس متى ١١: ٢٧ يقول الربّ: «فما من أحد يعرف الابن إلّا الأب، ولا من أحد يعرف الأب إلّا الابن ومن شاء الابن أن يكشفه له». معرفة الله، عن قرب، لم تُعطَ للمسيحيّين فقط، بل إلى أناس كثيرين، ومع ذلك أن نعرف أنّه أبونا بالشكل الذي أظهره لنا المسيح فهو معطى للمسيحيّين بيسوع المسيح. خارج الإعلان الكتابيّ يبدولنا الله أنّه خالق الأشياء كلّها. الحياة المفعمة بالإيمان والعبادة، قد تعلّمنا أنّ هذا الخالق رحيم ومحبّ، مليء بالحكمة وقد يقودنا إلى أن نتحدّث عن خالق الأشياء كلّها بعبارات الأبوة، هو يتعامل معنا كما يتعامل الوالد مع أبنائه.

وحتّى قبل مجيء المسيح، نجد في الكتاب المقدّس، مثلاً صارخاً عن رجل وثنيّ، إلّا أنّه كان على وشك أن يعرف الله من حيث البنوة والأبوة، إنّهُ أيّوب. إنّهُ وثنيّ لأنّه لا ينتمي إلى نسل إبراهيم، وليس واحداً من وارثي وعود إبراهيم. إنّهُ أحد أبرز شخصيّات العهد القديم بسبب نزاعه مع الله. الرجال الثلاثة الذين يتجادلون معه يعترفون بالله سيّداً. الله له الحقّ في

أن يفعل ما فعله بأيوب. الله محقّ في كلّ ما يصنع لأنّه ربّ الأشياء كلّها. وهذا ما لأيوب أن يقبله لأنّه يعرف الله مختلفًا. في خبرته الروحيّة يعرف أنّ الله ليس فقط سيّد الأشياء كلّها. هو لا يقبل به سلطة استبداديّة، كلّيّ القدرة يفعل ما يحلّوله. وبما أنّ الله لم يقل بعد شيئًا عن نفسه ولم يعبر عن أبوّته، فإنّ هذا كلّه رؤيا نبويّة ورجاء، وليس كشفًا حقيقيًا لله في أبوّته.

عندما يظهر الربّ لأيوب ويحيب عن كلّ أسئلته، يستعمل عبارات وثنيّة كما يرد في المزمور «السموات تديع مجد الربّ والجّلد يخبر بما صنعت يداه» (مزمور ١٩: ١). ويفهم أيوب ما يردّده بولس الرسول عن إرميا (٣١: ٣٣)، «شريعة الله مكتوبة في قلوبنا» (رو ٢: ١٥). الله يجابه أيوب برؤيا العالم المخلوق كلّه ويجادله. بعد ذلك رغم أنّ أيوب وجد نفسه مخطئًا إلّا أنّ الله يقول إنّهُ محقّ أكثر من الذين يخالفونه وهؤلاء الذين يعتبرون الله سيّدًا وملكًا أرضيًا.

ومع أنّه لم يدرك معرفة الأبوة الإلهيّة إلّا أنّه ذهب أبعد من أصدقائه وما يعرفونه عن الله. يستطيع المرء أن يقول إنّهُ في العهد القديم نجد أيوب في رؤياه النبويّة الأولى عن أبوة الله وخلص البشر يمكن أن تتحقّق مع من كان مساويًا لله والبشر معًا. وعندما توجّه أيوب إلى الربّ متهمًا إيّاه وقائلًا (أيوب ٩: ٣٣): «لو كان بيننا حكم يجعل يده على كلينا لرفع عنيّ عصاه»، نرى فيه شخصًا تخطّى فهم معاصريه مع أنّه لا يمتلك أيّ أساس

أودليل ليثبت إيمانه ومعرفته، لأنّ الله لم يتكلّم بعد عبر يسوع المسيح.
سرّ الأبوة وسرّ البنوة متلازمان. لا تستطيع أن تعرف الآب إلّا إذا
عرفت الابن، ولا تستطيع أن تعرف الابن إلّا إذا عرفت الآب، لا معرفة من
الخارج. تستند علاقتنا مع الله إلى فعل الإيمان الذي يدعمه تجاوب الله
الذي يثمر هذا الإيمان. الوسيلة التي بها نصبح أعضاء في المسيح هي فعل
إيمان يكتمل بالله في المعموديّة. بطريقة يعرفها الله وحده والذين دعوا
وتجدّدوا نصبح بالمشاركة ما هو عليه المسيح بالولادة. فقط عندما نصبح
أعضاء في المسيح نصير أبناء الله. ما يجب ألا ننساه هو أنّ أبوة الله هي أكثر
من موقف دفء وعاطفة، إنّها حقيقة أكثر وصادقة. الله يصبح في المسيح
أبًا للذين باتوا أعضاء في جسد المسيح. لكنّ الإنسان لا يرتبط بالمسيح
بواسطة عاطفة بسيطة رخوة، إنّّه جهد نسكيّ قد يتطلّب حياة بكاملها
ويكلّف أكثر ممّا كنّا نعتقد في البدء.

حقيقة أن نصير مع المسيح واحدًا تعني أنّ ما ينطبق على المسيح
يسري علينا أيضًا، ونستطيع بطريقة لا يعلمها أحد، أن ندعو الله أبانا
ليس وظائفًا ولا بالنبوءة أو الاستباق بل بالمسيح. هذا له تأثير مباشر على
الصلاة الرّبانيّة. من جهة ثانية هذه الصلاة يمكن أن يتلوها من أراد لأنّها
كونيّة، إنّها السّلّم الصاعدة نحو الله. ومن جهة أخرى إنّها خاصّة وحصريّة
تمامًا. إنّها صلاة الذين بالمسيح هم أبناء الآب الأزليّ الذي يكلمونه كأبناء.
عندما ننظر إلى الصلاة بمعناها الكونيّ، من الأفضل أن ندرسها

ونحلّها من ناحية الارتقاء، لكن ليس بالطريقة التي أعطاهها المسيح للذين به ومعه هم أبناء الله. لأنّه بالنسبة إليهم، ليس هناك بعد من ارتقاء، لأنّنا في الكنيسة أبناء الله، والكلمة الأولى «أبانا» تؤكد الواقع وتجعلنا نأخذ الحيّز الذي لنا. ليس صحيحاً أن نقول إنّنا لا نستحقّ دعوته، فنحن قد قبلناها وهي لنا. قد نكون الابن الضالّ وسيكون علينا أن نُسأل عن ذلك. ما هو أكيد هو أنّنا لن نعود إلى ما كنّا عليه. عندما عاد الابن الشاطر إلى أبيه وأوشك أن يقول: «ولست أهلاً بعد ذلك لأن أدعى لك ابناً، فاجعني كأحد أجرائك» (لوقا ١٥: ١٩)، سمح له الأب بلفظ أولى الكلمات: «إنّي أخطأت إلى السماء وإليك ولست أهلاً بعد ذلك أن أدعى لك ابناً»، وهنا أوقفه الأب عن الكلام. نعم هو غير مستحقّ، لكنّه رغم كلّ عدم استحقاقه هو ابنه. لا تستطيع أن تتخلّى عن عضويّة عائلتك مهما فعلت سواء كنت مستحقّاً أو لا؟.

مهما كنّا ومهما كانت نوعيّة حياتنا، ومهما كنّا غير مستحقّين فنحن ندعى أبناء الله، أو ندعو الله أبانا، لا مفرّ من ذلك. هذه هي حالنا، هو أبونا ونحن مسؤولون عن علاقة البنوّة. لقد خلقنا كأولاد وبرفضنا حقّ الولادة نصبح أولاداً ضالّين. لو لم يعد الابن الضالّ واستقرّ وتزوّج في أرض غريبة، فالابن المولود من هذا الزواج سيكون مرتبطاً بجده. لو عاد إلى موطن والده فسيُستقبل كفرد من العائلة؛ ولو لم يرجع سيكون مسؤولاً عن عدم عودته، وبقائه في أرض بعيدة غريباً عن عائلة والده.

بالمعمودية يعود الأولاد إلى البيت الأبوي، ونعمّد طفلاً بالروحية ذاتها التي بها نشفي طفلاً رضيعاً من المرض. وإذا رأى في ما بعد أنّه كان من الأفضل لو بقي على إعاقته ولا يعود بالنفع على مجتمعه ويكون حرّاً من كلّ واجب، فهذا موضوع آخر.

عندما تعمّد الكنيسة طفلاً فهي تشفيه لتجعل منه عضواً مسؤولاً في مجتمعه. ورفض المعمودية يعادل رفض فعل الشفاء. في المعمودية لا نصبح أصحاء فحسب بل نصبح أعضاء في جسم المسيح.

في هذه المرحلة أن ندعو الله أبانا فهذا يعني أننا وصلنا إلى صهيون إلى قمة الجبل، وفي قمة الجبل نجد الله، الحبّ الإلهي، انكشاف الثالوث؛ هناك تبدو التلة الصغيرة التي نسمّيها الجلجلة، حيث يختلط التاريخ بالأبدية. من هناك نستطيع أن نستدير وننظر إلى الوراء. هنا، على المسيحي أن يبدأ حياته المسيحية، بعد أن يكمل ارتقاءه يشرع بتلاوة الصلاة الربّانية، كما علّمنا إياها الربّ، على أنّها صلاة الابن، صلاة الكنيسة، صلاة كلّ واحد منّا مع الآخرين، كشخص هو ابن في الابن. وفقط عندها نستطيع أن ننزل من قمة الجبل، خطوة خطوة، لنلاقي من هم على الطريق أو من لم يسلكوا السبيل بعد.

الفصل الثالث

صلاة برطيماوس

حالة برطيماوس، كما دوّنها الإنجيليّ مرقس في الإصحاح العاشر (٤٦)، تدفعنا إلى التبصّر في عدد من النقاط المرتبطة بالصلاة.

وجاؤوا إلى أريحا، وبينما هو خارج من أريحا مع تلاميذه وجمع غفير من الناس، كان أعمى يدعى برطيماوس ابن طيماوس قاعدًا إلى جانب الطريق يستعطي. وعندما سمع هذا أنّ يسوع الناصريّ هو الذي يعبر بقرية، أخذ يصرخ قائلاً: «رحماك، يا ابن داود، يا يسوع». فأنهره أناس كثريّسكت، لكنّه صاح بأعلى صوته «رحماك يا ابن داود». فوقف يسوع وقال «ادعوه». واستدعى التلاميذ الرجل الأعمى قائلين له «تشدّد وقم فإنّه يدعوك». وعند سماعه هذه الكلمات، ألقي عنه رداءه ووثب وجاء إلى يسوع. فقال له يسوع: «ماذا تريد أن أصنع لك؟» فأجاب الأعمى: «رأبوني، أن أبصر». فقال له يسوع: «إذهب إيمانك خلصك». فأبصر للوقت وتبعه في الطريق.

على ما يبدو، برطيماوس هذا لم يكن شابًا، فقد قعد سنوات عديدة بالقرب من بؤابة أريحا، محصلاً قوته من رحمة المازين وجودهم. ومن المرجح أنه استنفد كل الوسائل الممكنة ليبراً من مرضه. وفي طفولته، لا بد من أنه أحضر إلى الهيكل، وارتفعت الصلوات من أجله وقدّمت التقدّمات لشفائه. كما زار كل من يمكن أن يساعده على التخلص من عاهته، إمّا لأن هؤلاء كانت لهم القدرة على إيجاد الدواء، أو لأنهم كانوا على قدر من المعرفة الطبيّة. بالتأكيد، جاهد برطيماوس ليبصر، إلا أن مساعيه باءت بالفشل والخيبة، ورغم كل الجهود البشريّة، بقي أعمى.

طبعًا، سمع برطيماوس، خلال الأشهر الماضية، عن مبشر شاب ظهر في الجليل، شاب يحبّ الناس، رحوم وقدّيس من الله، يستطيع أن يشفي المرضى ويجترح العجائب. وربّما فكر، أحيانًا، أنه لو استطاع لذهب إليه. إلا أن يسوع كان يتنقل من مكان إلى آخر، ومن غير الممكن على أعمى أن يجد سبيلًا إليه. وهكذا قبع قرب بؤابة أريحا وقد فقد كل بارقة أمل في نفسه.

وذات يوم، مرّ به جمع غفير، لم يعتده من قبل، فاحتار الأعمى بسبب هذه الجلبة وسأل من يمكن أن يكون، فقالوا له إنه يسوع الناصريّ. عندها بدأ يصرخ وينادي، وفجأة أحسّ وكأنّ في قلبه نارًا تشتعل، عاد الأمل إليه من جديد، فيسوع الذي لم يقدر على لقائه، إذا به يمرّ أمامه. وشعر كأنّ كل خطوة تقرّبه أكثر إليه ثمّ تبعه عنه، ومن أعماق اليأس، صرخ

قائلاً «يا يسوع ابن داود ارحمني»، فكان ذلك أفضل إعلان إيمانيّ يمكن لأعشى أن يتفوّه به. إذ اعترف، عبره، بأنّ الذي يعبر أمامه هو المسيح ابن داود. ما كان باستطاعته أن يناديه بابن الله لأنّ تلاميذه ما كانوا يعلمون ذلك بعد. لكنّه عرف فيه من كان منتظرًا، وعندها حدث ما هو معهود في حياتنا، فقد أمره الجميع بالصمت.

كم من مرّة، وبعد أن نكون قد خضنا نضالاً طويلاً، من دون إرشاد أو مساعدة من أحد، وفجأة عندما نبدأ بالتضرّع إلى الله، تتدخّل أصوات، خارجيّة وداخليّة في آن، محاولة أن تسكت صلواتنا وتثنيينا عن سعيينا. هل هي مفيدة صلواتك؟ ما هي الجدوى من الصلاة؟ إغرق في يأسك، أنت أعشى وأعشى ستبقى إلى الأبد. لكن، كلّما كبرت المعارضة كلّما تعاظم الأمل بالمساعدة. الشيطان لا يهاجمنا أبداً بقوة إلا عندما نكون اقترينا من نهاية صراعنا ومن خلاصنا، وأحياناً لا نصل إلى النتيجة المتوخّاة لأنّنا نستسلم في آخر لحظة. استسلم يقول لك الشيطان، استعجل، الأمر يفوق طاقتك وأنت تستطيع إنهاءه الآن، لا تنتظر فأنت لا تستطيع التحمّل أكثر. وعند هذا الحدّ ننتحر جسدياً وأخلاقياً وروحياً؛ نتخلّى عن الصراع ونقبل الموت قبل لحظات من الحصول على المساعدة واقتراب الخلاص.

ينبغي لنا ألاّ ننصت البتّة إلى هذه الأصوات، وكلّما ارتفعت وتيرتها فما علينا إلّا أن نزداد عزماً وإصراراً. علينا أن نستعدّ للصراخ بأعلى صوتنا، وأطول مدّة ممكنة، مثلما فعل أعشى أريحا. يسوع كان ماراً، أمل

برطيمائوس الأخير كان عابراً، لكنّ الناس المحيطين بيسوع إمّا لم يكثرثوا لأمره وإمّا حاولوا إسكاته، لأنّ لا مكان لحزنه وعذابه بينهم. فالناس المحيطون بيسوع، والذين ربّما ما كانوا بحاجة ماسّة إليه، أرادوه أن ينشغل بهم وحدهم. ولماذا على هذا الأعمى البائس أن يقاطعهم؟ إمّا برطيمائوس فقد أدرك أنّه لا أمل له بالشفاء إذا لم يستغلّ هذه المناسبة. عمق اليأس كان البئر الذي منه انبعث الإيمان، والصلاة المفعمة باليقين والإصرار هي التي حطّمت كلّ الحواجز، إنّها الصلاة التي تطرق أبواب السماء، على حدّ قول القديس يوحنا السلّميّ. لأنّ يأس برطيمائوس كان عميقاً فهو لم يذعن إلى الأصوات التي أمرته بالصمت والهدوء، وكلّما حاول الجمع منعه من الوصول إلى يسوع، كلّما كان صراخه يعلو قائلاً: «ارحمي يا ابن داود». فوقف يسوع، وأمر أن يؤتى به إليه فكانت المعجزة.

نتعلّم من برطيمائوس، في مقاربتنا العمليّة للصلاة، أنّه عندما نتوجّه إلى الله بكلّ عقلنا وقلبنا فالله يستجيب لنا. عادة، عندما ندرك أنّه ليس في وسعنا الاعتماد على كلّ ما اعتدنا، إلّا أنّنا، رغم ذلك، لسنا على استعداد كي نتخلّى عن هذه الأمور التي نعوّل عليها. نحن نرى أنّه لا أمل يرتجى من الطرائق البشريّة. نصلو إلى أمر ما ونتكل على بصيرتنا وإدراكنا، ولكننا نصاب بخيبة أمل ولا نجد أمامنا سوى العذاب واليأس، ونقف عند هذا الحدّ منهزمين. لكن، في هذه اللحظة بالذات، إذا لجأنا إلى الله عالمين أنّه لم يبق لنا سواه وقلنا: «أنا أثق بك وأستودع بين يديك روحي وجسمي

وكلّ حياتي»، عندها يكون اليأس قد قادنا إلى الإيمان.

اليأس يفضي بنا إلى حياة روحية جديدة عندما نتجرأ ونذهب أعمق وأبعد، مدركين أنّ ما يدفعنا إلى اليأس ليس الظفر الأخير، بل الوسيلة التي نستعين بها حتّى نبلغ إليه. عندئذٍ نبدأ من الحضيض بطريقة جديدة مغايرة. والله قد يعيدنا إلى إحدى الوسائل التي اختبرناها، ولكن معه وبإشرافه، يمكننا أن ننجح في استخدامها. يجب أن يكون هناك تعاون كامل وتام بين الله والإنسان، وعند ذلك يهب الله الفطنة والحكمة والقدرة على إنجاز الأعمال الجيدة والوصول إلى الهدف المنشود.

الفصل الرابع

تأمل وتعبد

غالبًا ما يختلط الأمر بين التأمل والتعبد، لكن، لا خطرناجم من هذا التشوّش إذا ما تحوّل التأمل إلى صلاة، فقط عندما تتراجع الصلاة إلى تأمل، هناك تكمن المشكلة. التأمل، أساسًا، يعني التفكير حتّى لو كان الله محور أفكارنا. وإذا اتّجهنا، نتيجة ذلك، تدريجًا نحو عبادة أعمق، وإذا شعرنا بقوة، بحضور الله وانتقلنا من التأمل إلى الصلاة، فهذا جيّد وصحيح. لكنّ العكس يجب ألاّ يحصل البتّة. وفي هذا السياق هناك فرق شاسع بين التأمل والصلاة.

التمييز الأساس بين التأمل وتفكيرنا العرضيّ هو هذا الانسجام والتماسك، يجب أن يكون تمرينًا نسكيًا متّسمًا برجاحة العقل. ثيوفانوس الحبّيس تحدّث عن طريقة الناس في التفكير، فقال إنّ الأفكار تطنّ في رأسنا مثل رفّ من الذباب، في كلّ الاتّجاهات وبشكل رتيب من دون أيّ تنظيم أو نتيجة معيّنة. وعندما نبدأ بالتفكير بالله وبالأمر الإلهيّة أو بكلّ

ما يتعلّق بحياة الروح، تظهر أفكار مساعدة. ومن كلّ جانب نرى احتمالات كثيرة، وأمورًا مهمّة وغنيّة. لكن علينا، بعد أن نختر موضوع تفكيرنا، أن نتخلّى عن الباقي ما عدا ما انتقينا. هذه هي الطريقة الوحيدة التي نستطيع عبرها تركيز أفكارنا والذهاب بها إلى العمق.

هدف التأمل لا يكون في إنجاز تمرين فكريّ علميٍّ، وليس عملاً ثقافيًّا، إنّهُ تفكير مستقيم بإشراف الله وباتّجاهه ويجب أن يقودنا إلى استنتاج حول طريقة حياتنا. من المهمّ أن ندرك أنّ التأمل جاء بنتيجة جيّدة، إذا استطعنا عبره أن نعيش وفق الإنجيل.

كلّ واحد منّا منغلّق على نفسه في أمور معيّنة وهو، في الوقت ذاته، منفتح على مسائل أخرى. وإذا كنّا لم نألّف التفكير، فمن الأفضل أن نبدأ بشيء حيويّ بالنسبة إلينا، أو بأقوال تجذبنا أو تجعل قلبنا يتحرّق في داخلنا. أو على العكس، نبدأ بقضايا نثور ضدها ولا نقبلها، ونحن نجد هذين الطرفين في الإنجيل.

ومهما اخترنا، أكان ذلك آية أو قضيّة أو حادثًا، في حياة المسيح، علينا أولاً أن نقدّر مضمونه الحقيقيّ. هذا مهمّ للغاية لأنّ هدف التأمل ليس في التخيل بل في فهم الحقيقة. الحقيقة هي حقيقة الله والتأمل هو جسر بين نقص الفهم والحقيقة المعلنة. إنّها طريقة لتنشيط ذكائنا ولنتعلّم تدريجًا أن يكون لنا فكر المسيح، كما يقول بولس الرسول (١ كو ١٦: ٢).

ولنتأكد أنّ معنى النصّ ليس دائماً بسيطاً، كما يبدو، هناك مقاطع سهلة للغاية، ومقاطع أخرى فيها كلمات مستعملة لا تفهم إلاّ على خلفيّة خبرتنا أو الفهم التقليديّ لهذه الكلمات. على سبيل المثال عبارة «عروس الحمل» تُفهم، فقط، إذا عرفنا ماذا تعني كلمة حمل في الكتاب المقدّس، وغير ذلك لا يبقى لهذه الكلمة معنى ولن نفهمها. هناك كلمات أخرى نفهمها فقط إذا تجاهلنا المعنى الخاصّ أو التقنيّ الذي اكتسبته. فمثلاً هناك كلمة «روح». بالنسبة إلى المسيحيّ، روح هي كلمة تقنيّة، إنّهُ الروح القدس أيّ الألقوم الثالث، أو أحد مركّبات الجسم الإنسانيّ، الجسد والروح. هذه الكلمة لا تنقل دوماً ببساطة وسماحة ما أراد كتبة الإنجيل نقله، وأصبحت متخصصة جدّاً، ألى درجة فقدت معها صلتها بجذورها. وللتأكّد من النصّ وما يعنيه، هناك أيضاً التحديد الذي نقرأه في القواميس. كلمة روح أو أيّ كلمة أخرى قد نجدّها في المنجد وتبدو سهلة وواضحة، إلاّ أنّها قد تأخذ معنى أعمق بفعل جهد اللاهوتيّين. لكن يجب ألاّ نبدأ بالمعنى الأعماق قبل أن نطلّع على المعنى الواضح والبسيط الذي فهمه الجميع في زمن المسيح.

هناك أشياء لا نفهمها إلاّ ضمن تعليم الكنيسة. الكتاب المقدّس يجب أن يُفهم على ضوء فكر الكنيسة، بفكر المسيح لأنّ الكنيسة لم تتغيّر. وبخبرتها الداخليّة، هي تعيش كما كانت في الألفيّة الأولى، والكلمات التي نطق بها القديّسون بولس وبطرس وباسيليوس وغيرهم، ضمن الكنيسة، حافظت على معناها. إذاً بعد فهم الكلمة على أساس لغويّ معاصر،

علينا أن ننقل إلى الكنيسة لنعرف معنى هذه الكلمات. وعندها فقط، يمكننا أن نتيقن من المعنى المقصود في النصّ، ويحقّ لنا البدء بالتفكير واستخلاص النتائج. وعندما نحوز معنى النصّ، علينا أن نعرف ما إذا كان يقدّم لنا اقتراحات أو يفرض علينا أوامر. وبما أن هدف التأمل وفهم الكتب المقدّسة هو إتمام مشيئة الله، فعلى أن نستخلص النتائج العمليّة الصحيحة ونسير بموجبها. وعند اكتشافنا المعنى، أي الجملة التي خاطبنا فيها الله، علينا أن ننعم النظر فيها ونحسن تطبيقها في حياتنا. بولس، القديس المصريّ، عندما سمع القديس أنطونيوس الكبير يقرأ الآية الأولى من المزمور الأوّل «طوبى لمن لا يسير في مشورة الشريرين»، خرج فوراً إلى البريّة. وبعد نحو ثلاثين سنة، التقى القديس أنطونيوس القديس بولس فقال له الأخير بتواضع كبير: «لقد أمضيت كلّ هذا الزمن أحاول أن أكون هذا الرجل الذي لا يسير في مشورة الأشرار». ليس علينا أن نفهم العديد من النقاط والمواضيع، حتّى نصل إلى الكمال. ما نحتاج إليه هو ثلاثون سنة من العمل في محاولة الفهم لتصير هذا الإنسان الجديد.

أحياناً نأخذ في الاعتبار نقطة أو اثنتين ونهمل الباقي. وهذا خطأ فادح إذ يلزمنا وقت طويل حتّى نصل إلى المبتغى. آباء الكنيسة وصفوا الإنسان اليقظ والمتنبّه على أنّه القادر على التركيز جيّداً على فكرة ما. الكتاب الروحيّون، ماضيّاً وحاضرّاً، يقولون لنا: «خذ نصّاً واقراه، مرّة تلو المرّة، ويوماً بعد يوم، حتّى ينطبع في ذهنك وبفضل هذه الطريقة يتغيّر

موقفك وسلوكك».

في أغلب الأوقات، يكون التأمل هو مجرد تفحص النص، والكلمات التي وجهها الله إلينا حتى نتألف معها ونتشبع بها، فنصبح آنذاك واحدًا معها. في هذا السياق، حتى لو لم نكتسب غنى فكريًا خاصًا نكون قد تغيرنا.

في مناسبات كثيرة، يمكننا أن نُعمل العقل في أوضاع حياتية عديدة، ويكون علينا خلالها أن ننتظر، وإذا كنّا متمرّنين يمكننا أن نركّز اهتمامنا على موضوع تأملنا. علينا أن نتعلّم كيف نجمع أفكارنا ونركّزها ونترك كلّ شيء آخر. في البدء قد تعترضنا أفكار جانبية، ولكن إذا دفعناها عنّا، مرّة بعد مرّة، ستدعنا هذه الأفكار بسلام. بفضل التدرّب والعادة يمكننا أن نركّز عميقًا وبسرعة، وهكذا طوال حياتنا، رغم كثرة انشغالنا، نبقي في حالة من الهدوء واستجماع الحواس. إذ نستطيع أن نكون وسط الجماعة ومحاطين بالناس، ومع ذلك نكون وحدنا وغير متأثرين بما يدور حولنا. الأمر يتعلق بنا إذا نحن سمحنا لما يحدث في الخارج بأن يصبح حدثًا داخل حياتنا أو لا. إذا سمحنا بذلك ينعطب تركيزنا، وإذا لم ندع شيئًا يلهينا، فإننا في عزلة تامّة وحواسنا كلّها مجتمعة في حضرة الله مهما جرى حولنا. قصّة الأبيشي تدور في هذا السياق. فهذه العائلة المسلمة كانت تحافظ على الصمت عندما يستقبل الوالد زائرًا ما. أمّا إذا كان ربّ العائلة يصلي، فالضجة لم تكن لتؤثر عليه، فهو في هذا الوقت، لا يسمع شيئًا، حتى إنّه في أحد الأيام لم ينتبه إلى الحريق الذي نشب في بيته.

قد نجد أنفسنا بين أشخاص يتناقشون بحدّة ولا يمكننا أن نترك القاعة فماذا نفعل؟ نعود إلى يسوع ونقول له: «أعلم أنّك هنا فأرجوك المساعدة». صحيح أنّ يسوع موجود في هذه الجماعة، ولكنّ الفرق يكمن في الإيمان، في الصمت والهدوء مع يسوع نكتشف أنّنا نستطيع أن نقول كلمات هادئة لا يمكن أن نتلفّظ بها خلال المناقشة.

وبالتوازي مع الانضباط العقليّ، علينا أن نتعلّم كيف نكتسب جسداً مسلماً. مهما كان نشاطنا النفسيّ فإنّ جسمنا يتفاعل معه. كما أنّ حالتنا الجسديّة تحدّد إلى درجة ما نوع نشاطنا النفسيّ ووضعه. ثيوفانيس الحبيس يقول إنّ أحد أسباب النجاح هو عدم السماح للجسد بالتراخي «كونوا مثل وتر الكمان مضبوطين على نغمة معيّنة من دون فتور أو توتر، الجسم منتصب والكتفان مستقيمتان، الرأس صحيح وكلّ العضلات مشدودة نحو القلب». قيل الكثير عن السبل التي تمكّن الجسد من زيادة القدرة على الانتباه، ولكن على مستوى يقبله الجميع. نصيحة ثيوفانيس تبدو بسيطة ودقيقة وعملية. علينا أن نسترخي ونكون يقظين في الوقت عينه، وأن نتحكّم بجسمنا حتّى لا يشرد، بل يجعل استجماع الحواس سهلاً علينا.

التأمّل هو نشاط فكريّ، في حين أنّ الصلاة هي نبذ كلّ فكر. وبحسب تعاليم آباء الكنيسة الشرقيّين، فإنّ الأفكار التقيّة الورعة والعميقة والآراء اللاهوتيّة، إذا ما خطرت على بالنا خلال الصلاة، فهي

تعتبر تجربة ويجب قمعها، لأنّه وبحسب الآباء أيضًا، من حماقة أن نفكر بالله وننسى أنّنا في حضرته. كلّ الآباء الأرثوذكس يحذّروننا من إبدال هذا اللقاء مع الله بالتفكير فيه. الصلاة أساسًا هي الوقوف بإزاء الله مع الاجتهاد في سبيل استجماع الحواس والانتباه إلى حضور الله، وهذا يعني الوقوف بذهن كامل وقلب واحد وإرادة واحدة في حضرة الربّ، وهذا ليس بالأمر السهل. ومهما اكتسبنا من تدريبنا، فهناك طريق مختصر يشقّ في أيّ وقت. الاندماج يمكن أن يصل إليه الإنسان الذي يكون له حبّ الله، بالنسبة إليه، كلّ شيء، الإنسان الذي حطم القيود كلّها والإنسان الذي أعطى ذاته كليًّا لله، ما عاد هناك جهاد شخصيٍّ إنّما هو عمل نعمة الله.

الله هودائمًا ما نصبو إليه ومركز انتباهنا، إذ إنّنا أحيانًا كثيرة نعتقد أنّنا نصليّ إلى الله، لكن في الواقع، لا يكون الله محور صلاتنا، ولا نشعر بحضوره فعليًّا حتّى نتمكّن من استجماع قوّتنا وفكرنا وعاطفتنا وإرادتنا، فنكون كتلة متراصة من الانتباه.

إذا حضّرنا للصلاة بالتخيّل وقلنا «الربّ يسوع هنا، هذا ما هو عليه، هذا ما أعرفه عنه وهذا ما يعنيه لي...»، وكلّما كانت الصورة أغنى كان الحضور أقلّ واقعيّة، لأنّ هذا النموذج المعبود الذي نبنيه يعتمّ على الحضور الحقيقيّ. نستطيع أن نأخذ القليل من المساعدة من هذه الصورة كنوع من التركيز العاطفيّ، لكن هذا ليس حضورًا لله، أيّ الحضور الإيجابيّ والحقيقيّ.

يشدّد تعليم آباء الكنيسة والتقليد الأرثوذكسيّ على التركيز بجهد وإرادة، على الصلاة التي نتلوها. علينا أن نلفظ الكلمات بانتباه، من دون أن نخلق حالة عاطفيّة ونترك لله أن يستحثّ أيّ تجاوب نحن قادرون عليه.

يعطينا القديس يوحنا السلميّ طريقة سهلة للتدرّب على التركيز، ويقول «اختر صلاة معيّنة، الصلاة الرّبانيّة أو غيرها، وقف بإزاء الله وانتبه إلى مكان وجودك وإلى ما تفعله وانطق بكلمات الصلاة بانتباه. بعد وقت قليل تجد أنّ أفكارك قد شردت، عندها ابدأ الصلاة من جديد حيث توقّفت. قد تفعل ذلك عشر مرّات أو عشرين مرّة وحتىّ خمسين. وقد تتلو ثلاث جمل فقط خلال الصلاة، لكن في هذا الجهد استطعت أن تركّز على الكلمات وتقدّم لله صلاة جيّدة ومفهومة وواضحة.

ينصحنّا القديس يوحنا السلميّ أيضًا بقراءة الصلاة التي نريد من دون أيّ استعجال، بطريقة رتيبة وبطيئة نفهم عبرها الكلمات. ولكن ليس ببطء شديد حتّى لا نملّ، ومن دون أن نحاول اختبار أيّ منحنى عاطفيّ، لأنّ ما نصبو إليه هو إقامة علاقة مع الله. ما علينا أبدًا أن نستخرج من القلب أيّ شعور عاطفيّ عندما نأتي إلى الله. الصلاة هي تصريح وبيان والباقي هو مرتبط بالله. بهذه الطريقة من التدريب يعطى وقت للصلاة. وإذا كانت هذه الصلاة متنهية فلا أهميّة لطول الوقت. إذا كنت تقرأ ثلاث صفحات في برنامج صلواتك ووجدت نفسك بعد نصف ساعة في السطرين الأولين

فهذا بالطبع غير مشجّع، لذا من الأنسب تحديد الوقت والالتزام به. عندها إذا تدرّبت بسرعة ستكتشف أنّ انتباهك صار أفضل. القديس يوحنا السلميّ درّب عشرات الرهبان بهذه الوسيلة ونجح.

الجمال الخارجيّ الذي تتحلّى به طقوسنا يجب ألاّ ينسينا أنّ الرصانة مهمّة جدًّا في الأرثوذكسيّة. كاهن إحدى القرى، في كتاب «سائح على دروب الربّ»، يعظّ حول الصلاة ويقول: «إذا أردت أن تتنقّى عليك أن تختار صلاة قصيرة مؤلّفة من كلمات قليلة وردّها مرارًا على فترة طويلة. وعندها ستجد متعة في الصلاة». والفكرة ذاتها تردّ في رسائل الأخ لورانس: «لا أنصحكم باستعمال كلمات كثيرة في الصلاة، فكثرة الكلام والأحاديث الطويلة قد تتسبّب في تشتّت الذهن».

سئل يوحنا كرونشتادت مرّة كيف أنّ الكهنة، رغم تدرّجهم، يختبرون تشتّت الأفكار حتّى خلال الخدمة الإلهيّة. وكان الجواب «بسبب قلة إيماننا». نحن إيماننا غير كافٍ، الإيمان الذي يمكن فهمه بحسب الرسول بولس «الإيمان برهان الحقائق التي لا تُرى» (عبرانيّين ١١: ١).

ومن الخطأ أن نعتبر أنّ الأفكار التي تحوّل الانتباه تأتي كلّها من الخارج، ينبغي أن نواجه حقيقة أنّها تأتي من أعماقنا. إنّها انشغالنا الدائم الذي يتقدّم إلى الواجهة، إنّها عادة الأفكار التي تشغل حياتنا، والطريقة الوحيدة للتخلّص منها هي في تغيير وجهة نظرنا حول الحياة. مرّة ثانية يقول الأخ لورانس في رسالته الثامنة: «طريقة واحدة لاستجماع الذهن هي

في تحديد وقت الصلاة والمحافظة عليه في حضور الرب. ستجد من السهل الإبقاء على هدوء الذهن في وقت الصلاة، أو استدعائه من شروده».

وطالما نحن نهتم كثيرًا بتفاهات الحياة فلن نأمل بالقدرة على الصلاة من كل قلبنا، وستبقى هذه السخافات تلون دائمًا سلسلة أفكارنا. وينطبق الأمر ذاته على علاقاتنا مع الآخرين، وهذا لا يتعلق بالإشاعات، بل يستند إلى ما هو أساس بالنسبة إلينا، وإلا فقد نجد أنفسنا غير قادرين على الوصول إلى مستوى آخر عندما نتجه إلى الله. ينبغي لنا أن نجثّ كل تفاهة ولغو في نفوسنا وفي علاقاتنا مع الآخرين، ونركّز على الأمور التي نستطيع أخذها معنا إلى الأبدية.

من غير الممكن أن نصبح شخصًا آخر لحظة نبدأ الصلاة، لكن بالانتباه إلى الأفكار يتعلّم الإنسان، تدريجًا، التمييز بينها وتقويمها. في حياتنا اليومية ننمي أفكارًا تظهر فجأة وقت الصلاة. الصلاة بدورها تغيّر حياتنا وتغنيها وتصبح أساس علاقة جديدة وحقيقية مع الله والمحيطين بنا.

في الجهاد الذي نبذله خلال الصلاة، العواطف هي في غير موضعها. ما نقدّمه لله هو تأكيد كامل وثابت على إخلاصنا له وإيماننا به وعلى أنه يسكن فينا. علينا أن نتذكّر أنّ ثمار الصلاة ليست هذه أو تلك من الحالات العاطفية، ولكنها تظهر في تغيير شامل لشخصيتنا. ما نهدف إليه هو أن نقف أمام الله ونركّز على حضوره، وكلّ حاجتنا موجّهة نحو الله، وأن

نُعطي قوّة أو أيّ شيء نحتاج إليه حتّى نتَمّم إرادة الله في حياتنا. أن نتَمّم مشيئة الله في حياتنا هو الهدف الوحيد من صلاتنا، وهو أيضًا معيار الصلاة الصحيحة، وليس الشعور الروحيّ أو عواطفنا التي تصنع الصلاة الجيدة. ثيوفانيس الحبّيس يقول: «سل نفسك هل صلّيت جيّدًا اليوم. لا تحاول أن تعرف كم هي عميقة أحاسيسك، أو كم هو عميق فهمك الأمور الإلهيّة؟ سل نفسك: هل أنا أنقذ مشيئة الله أفضل من قبل؟ فإذا كان الجواب بنعم فقد أتت الصلاة ثمارها. وفي حال العكس فالصلاة لم تعط نتيجة، مهما كان قدر الفهم أو الشعور الذي استخلصته من الوقت الذي أمضيته في حضرة الله».

التركيز في الصلاة أو التأمّل، يمكن أن تصل إليه بفعل الإرادة. حياتنا الروحيّة مرتكزة على إيماننا وعزمنا وتصميمنا. عندما سئل القديس سيرافيم ساروفسكي ما الذي يبقي الناس على خطاياهم في حين يصبح آخرون قديسين ويعيشون مع الله، أجاب «إنّه العزم فقط». نشاطنا تحدّده إرادتنا، وعادة يكون هذا معاكسًا لما نرنو إليه. هذه الإرادة المستندة إلى إيماننا، تتعارض مع إرادة أخرى، مع غرائزنا. في داخلنا إرادتان، الأولى تكمن في ضميرنا وتدفعنا إلى التصرّف بالانسجام مع قناعتنا. الثانية مختلفة وتتمثّل بأهوائنا ورغباتنا على أنواعها وهي في غالب الأحيان معاكسة لإرادتنا الأولى. الرسول بولس يتحدّث عن شريعتين تحارب إحداهما الأخرى (رو ٧: ٢٣). هو يتحدّث عن آدم العتيق والجديد اللذين

يتصارعان فينا. ونحن نعلم أنه على أحدهما أن يموت ليعيش الآخر. وعلينا أن ندرك أنّ حياتنا الروحية وحياتنا كإنسان متكامل لن تبلغ حدّ الكمال إلاّ إذا توافقت هاتان الإرادتان. ولا يكفي أن نسعى لانتصار الإرادة الجيدة على تلك السيئة. فالإرادة الشريرة التي هي رغباتنا الناتجة من طبيعتنا الساقطة، علمها تدريجاً أن تتحوّل إلى شوق إلى الله وتوق إليه. الجهاد قاسٍ وبعيد المنال.

الحياة الروحية، حياة المسيحيّ لا تتشكّل نتيجة تطوير إرادة قويّة قادرة على إجبارنا على القيام بما نريد. بمعنى آخر، إنّه إنجاز أن نقوم بالأعمال الحسنة والصحيحة، في حين نحن نرغب فعلاً في الأعمال الخاطئة، ولكن يبقى هذا الإنجاز صغيراً. الحياة الروحية الناضجة تدلّ على أنّ إرادتنا الواعية تتوافق مع كلمات الله، وتعيد تشكيل طبيعتنا وتحوّلها بالعمق بالالتكال على نعمة الله، حتّى نصير بكليّتنا إنساناً كاملاً وبإرادة واحدة.

بدءاً، علينا أن نخضع إرادتنا ونطوّعها لطاعة وصايا المسيح، ونطبّقها بصرامة حتّى لو تعارضت مع نظرتنا إلى الحياة. ينبغي لنا، بفعل إيماننا أن نقرّ بحقيقة أنّ يسوع على صواب. والخبرة تعلّمنا أنّ هناك أموراً لا يمكن أن تكون كما ترد في الإنجيل، لكنّ الله يقول إنّها ممكنة، إذاً هي كذلك. علينا أن نتذكّر أنّه عندما نتّمّم مشيئة الله بهذا المعنى الغرضي، فليس علينا أن نقوم بذلك مجرّبين لمعرفة ما سيؤول إليه الأمر، لأنّنا

سنفشل في النهاية. وتعلّمنا الخبرة أنّه عندما نُصفع يجب أن نردّ الصفعة، لكنّ يسوع يقول «درّله الآخر». ما نتوقّعه حقًا عندما نقرّر أن ندير الخدّ الآخر هو تحويل العدو واكتساب إعجابه. لكن بدلًا من ذلك عندما نُصفع ثانية نفاجأ أو نسخط، كما لو أنّ الله قد خدعنا لنعمل شيئًا غير مجدٍ.

علينا أن نتعالى عن هذا الموقف وأن نستعدّ لإتمام مشيئة الله ودفع الكلفة، وإلاّ فنحن نهدر وقتنا. بعد ذلك وفي خطوة لاحقة، علينا أن نتعلّم أنّ العمل ليس كافيًا لأنّه يجب ألاّ نتروّض في المسيحيّة بل أن نصبح مسيحيين. علينا أن نتعلّم خلال إتمام مشيئة الله أن نفهم قصده. يسوع كشف لنا عن نيّاته، وليس عن عبث، كما ورد في إنجيل يوحنا، أنّه لم يدعنا عبيدًا بل أحبّاء، لأنّ الخادم لا يعلم ما يعمل سيّده، وقد أطلعنا على كلّ ذلك (يو ١٥: ١٥).

علينا، عبر إتمام مشيئة الله، أن نتعلّم أنّ هذا العمل يلمح إلى أنّه، بالفكر والإرادة والموقف قد نصبح عاملين مع الله (١ كو ٣: ٩). وهكذا نجد أنّنا لا نستطيع مشاطرة حياة الله من دون أن نتغيّر جذريًا. لهذا من الضروري والأساس أنّه علينا أن نتوجّه إلى الله بغية أن يغيّرنا، وبدءًا علينا أن نطلب نحن هذا التحوّل. الكلمة اليونانيّة *metanoia* تعني التغيّر في الذهنيّة. والتحوّل يعني أنّه بدلًا من أن نقضي حياتنا ننظر في كلّ الجهات، علينا أن نتبع اتّجاهًا واحدًا. إنّ ابتعاد عن عدد من الأمور التي نعطيها قيمة فقط لأنّها ممتعة وملائمة. أوّل تأثير للتحوّل هو تعديل مفهومنا

للقيم. فالله لكونه محور الأشياء كلّها فهذه لا تكتسب مكانة جيّدة وعمقاً جديداً. كلّ ما هو لله وما ينتهي إليه هو إيجابيّ وحقيقيّ. وما هو خارج الله لا قيمه له ولا معنى. لكنّ تغيير الذهنيّة وحده لا يعني التحوّل، فقد نغيّر ذهننا وتفكيرنا ونقف عند ذلك. ما يجب أن يلي هذه الخطوة هو عمل الإرادة، وطالما أنّ إرادتنا لم تتحرّك وتتوجّه نحو الله فلن يكون تحوّل. على الأكثر هناك فقط تغيير أوّلٍ ساكن وغير فاعل. واضح أنّه ليس كافياً أن ننظر إلى الجهة الصحيحة ولا نتحرّك البتّة. التوبة ليست ندمًا ولا تكون في التأسّف على الخطايا الماضية. إنّما تكمن في موقف إيجابيّ وفاعل يتجلّى في التحرك نحو الاتجاه الصحيح. ومثّل الابن الورد في متى ٢٨:٢١ يوضح هذا التحوّل. فالأب حين طلب من ولديه الذهاب إلى الحقل، قال الأوّل سأذهب ولم يفعل. في حين قال الآخر «لن أذهب» ثمّ ندم وقام إلى الحقل. هذه كانت توبة حقيقية، ويجب ألا نخدع أنفسنا بأنّ التحسّر والتفجّع على الماضي هو فعل ندامة. ويبقى الندم غير حقيقيّ وعقيمًا طالما لم يقدنا إلى إتمام مشيئة الأب. نميل إلى التفكير بأنّه يجب أن تنتج منه عواطف نبيلة، وأحيانًا كثيرة نكتفي بهذه المشاعر عوضًا من التغيير الحقيقيّ والعميق.

عندما نسبّب الأذى إلى أحد الأشخاص وندرك أنّنا أخطأنا، غالبًا ما نذهب إليه ونعبّر عن حزننا وأسفنا. وعندما تكون المحادثة متوتّرة عاطفيًا وترافقها الدموع والعبارات المؤثّرة نعود وقد أحسّسنا أنّنا قمنا بكلّ ما يمكننا فعله. بكيّنا سويّة ونحن الآن في سلام وكلّ شيء على أفضل ما يرام.

ولكن لا! هذا ليس صحيحًا. نحن مبتهجون بفضائلنا والشخص الآخر الذي قد يكون طيّب القلب وسريع التأثر تجاوب مع هذا المشهد العاطفي. إلا أن هذا ليس تحولًا. لم يطلب أحد ذرف الدموع أو لقاء مع الضحية حتى لو كان الله هو الضحية. والمتوقع أنه عندما ندرك الخطأ علينا أن نصحّحه.

والتحوّل أيضًا لا ينتهي هنا ويجب أن يقودنا إلى أبعد، إلى تغييرنا بالكامل. التحوّل يبدأ ولكنه لا ينتهي أبدًا. إنه عملية متنامية نصح فيها تدريجًا ما يجب أن نكون عليه، حتى، بعد الدينونة تختفي حالات السقوط والتحوّل والصالح، وتحلّ مكانها حياة جديدة. وكما يقول يسوع «أصنع كلّ شيء جديدًا» (رؤيا ٢١: ٥).

يستطيع الإنسان أن يصلّي أينما كان، مع ذلك هناك أماكن تجد فيها الصلاة محيطها الطبيعيّ، أي الكنيسة، وذلك لتحقيق الوعد القائل «وأفرّحهم في بيت صلاتي» (إشعيا ٥٦: ٧).

تصبح الكنيسة، بعد تكريسها، مسكنًا لله، فهو حاضر فيها كما لم يكن في أيّ مكان آخر. في العالم هو غريب وسائح، مشرّد من باب إلى آخر ولا مكان له ليسند إليه رأسه. فهو يذهب كسيّد على هذا العالم الذي رذله وطرده من مملكته، لكنّه عاد إليها لينقذ شعبه. الكنيسة هي بيته ومطرحه، هو ليس فقط الخالق والربّ بحقّ، لكنّه هو هكذا فعلاً. خارج الكنيسة هو يعمل عندما يستطيع ذلك. أمّا داخل الكنيسة فالسلطة له

وهو سيّد المكان وما علينا إلّا أن نأتي إليه.

عندما نبني كنيسة أو نبيّ مكانًا للعبادة فنحن نقوم بعمل يتخطّى المظهر الخارجيّ. العالم كلّ الذي خلقه الله ملأته خطايا البشر، والشيطان فعل فعله والصراع قائم على الدوام، وليس هناك من مكان على الأرض لم يلوّث بالدم والخطيئة والألم. وعندما نأخذ دقيقة بعيدًا عن هذا العالم ونطلب قوّة الله في طقوس تتوسّل نعمته وبركته، وعندما ننظّف العالم من حضور الروح الشريرة، ونجعله موطنًا لقدم الربّ، فنحن نُخضع لله جزءًا بسيطًا من هذا العالم المدنّس. ونستطيع أن نقول هذا مكان يتجلّى فيه ملكوت الله ويظهر بكلّ مجده. حين نأتي إلى الكنيسة علينا أن نعي أنّنا ندخل أرضًا مقدّسة، مكانًا يملكه الله، لذا من الضروريّ أن يكون تصرّفنا ملائمًا. فالأيقونات التي نشاهدها على جدران الكنيسة ليست مجرد صور أو رسوم، الأيقونة مركز لحضور حقيقيّ. ينصحننا القديس يوحنا الذهبيّ الفم، قبل أن نبدأ الصلاة، بأن نقف أمام أيقونة ونغمض عينينا. ويقول «أغمض عينيك»، لأنّ الأيقونة لا في تفحصها، ولا في اعتبارها معيّنًا بصريًّا، يمكنها أن تساعدنا على الصلاة. ليس لها الحضور الأسراريّ الجوهريّ الذي للخبز والخمر، جسد المسيح ودمه. بهذا المعنى، الأيقونة ليست المسيح، لكن هناك رابط غامض بينهما. بقوّة النعمة تساهم الأيقونة في شيء يحدّده غريغوريوس بالاماس على أنّه قوّة المسيح، قوّة المسيح الفاعلة التي تعمل على خلاصنا.

تُرسَم الأيقونة كفعل عبادة. يُختار الخشب والطلاء بدقّة ويباركهما الكاهن. والرجل الذي يقوم بالرسم يُحضّر نفسه بالصوم والاعتراف وتناول القرايين المقدّسة. ويحافظ أيضًا على قواعد نسكيّة خلال عمله. وعندما ينجز الأيقونة تبارك هذه بالماء المقدّس. وهكذا بقوة الروح القدس تصبح الأيقونة أكثر من رسم. هي مفعمة بالحضور ومشبعة بنعمة الروح القدس ومرتبطة بالقديس الذي تمثّله، وخلال سرّ الشركة مع القديسين والوحدة الكونيّة بين كلّ الأشياء.

تركّز الأيقونة على حضور حقيقيّ اختبرته الكنيسة وعلمته. الأيقونة ليست شبيهًا إنّها رمز. بعض الأيقونات تميّزت عن غيرها بفعل قوّة الله وحكمته واعتبرت عجائيّة، وعندما تقف أمامها تشعر أنّها تتحدّث. زار كاهن روسيا، منذ مدّة، وشارك في الخدمة الإلهيّة في كنيسة توجد فيها أيقونة عجائيّة مشهورة لوالدة الإله. وأحسّ الكاهن فعلاً بمشاركتها في الخدمة. وبفعل مرور الزمن تغيّرت ملامح الأيقونة واعتراها السواد، ومن المكان الذي كان فيه الكاهن لم يستطع تمييز تفاصيلها، لذلك تابع صلاته وهو مغمض العينين، وفجأة شعر كأنّ والدته الإله في الأيقونة تدفعه إلى الصلاة، توجّهه وتنير ذهنه. أحسّ بقوة تنبعث من الأيقونة وتملأ الكنيسة بالصلاة وتهدي الأفكار المشتتة. وكأنّ العذراء حضرت بالجسد ووقفت هناك تخاطب وتحضّ على الاستجابة.

الفصل الخامس

صلاة غير مستجابة والتماس

في فصل المرأة الكنعانيّة (متّى ١٥: ٢٢)، نجد أنّ المسيح، على الأقلّ في البدء، يرفض أن يستجيب للصلاة، إنّها حالة صلاة تخضع لامتحان قاسٍ جدًا. المرأة تطلب شيئًا صائبًا ومحققًا، وهي أتت بإيمان كامل وراسخ ولا تقول حتّى «لو استطعت»، إذ هي موقنة أنّ يسوع قادر على مساعدتها ويريد ذلك وأنّ ابنتها ستشفى. لكلّ هذا الإيمان الجواب هو «لا». المشكلة ليست في الصلاة أو في الإيمان، بل بكلّ بساطة إنّها الشخص غير المناسب. فيسوع جاء لليهود وهي وثنيّة ولم يأت من أجلها. إلا أنّها تلحّ وتقول «نعم أنا غير مستحقّة ولكنّ صغار الكلاب تأكل من الفتات الذي يتساقط عن موائد أصحابها». وتقف واثقة بمحبّة الله رغم ما يقوله والعذر الذي يقدّمه. وهي حتّى لا تطلب محبة الله وتكتفي بالقول إنّها لا تستحقّ رغيًا وتريد فقط بعض الفتات، ورفض يسوع الواضح والدقيق يختبر إيمان المرأة وهكذا استجاب لصلاتها.

في كثير من الأحيان نتوسّل إلى الله قائلين: «يا ربّ إذا أردت استطعت»، تمامًا مثل الأب الذي قال ليسوع: «لم يستطع تلاميذك شفاء ابني الصغير، إذا استطعت أن تفعل شيئاً فافعله» (مرقس ٩: ٢٢).
 ويجب يسوع «بإذا» ثانية: «إذا آمنت، ولو قليلاً، فكلّ شيء مستطاع لدى المؤمن». وعندها يقول الرجل: «آمنت يا ربّ فأغث عدم إيماني». هاتان ال «إذا» متلازمتان، لأنّه إذا لم يكن هناك إيمان، فليس أيضاً من إمكانيّة أن يتدخّل الله.

فمسألة أن يتوجّه الإنسان إلى الله يجب أن تكون دليلاً على الإيمان به، ولكن ليس ذلك فقط، نحن نؤمن ولا نؤمن في الوقت عينه، والإيمان تظهر درجته عبر تخطّي الشكوك. عندما نقول «نعم أنا أشكّ، لكنّي أؤمن بمحبّة الله أكثر من ثقتي بشكوكي»، عندها يستطيع الله أن يعمل. أمّا إذا آمن الإنسان بالقانون وليس بالرحمة، إذا آمن الإنسان بأنّ العالم، كما نعهده بقوانينه الآليّة، هو آليّ لأنّ الله أراد أن يكون مجرد آلة، إذا لن يكون لله مكان فيه. ومع ذلك فإنّه من تجربة القلب، ومن العلم المعاصر أيضاً، نتعلّم أنّه ليس هناك من قانون مطلق وتأمّن آمن به الإنسان في القرن التاسع عشر. وعندما يعاد خلق ملكوت الله بالإيمان يكون هناك مكان لقوانين الملكوت، أي أنّ الله يقرّر أنّ يتدخّل بحكمته وبقدرته على عمل الخير في أوضاع شريرة، من دون أن يتسبّب بتشويش العالم. ال «إذا» التي نقولها تشير بشكل أقلّ إلى قدرة الله منها إلى محبّته واهتمامه. وجواب

الله، «إذا استطعت أن تؤمن بمحبتي فكلّ شيء مستطاع»، يعني أن لا أعجوبة ممكن أن تحدث إلا إذا كان ملكوت الله حاضراً.

الأعجوبة ليس تحطيماً لقوانين العالم الساقط، إنّها إعادة تأسيس قوانين ملكوت الله. الأعجوبة تحدث فقط، إذا آمنا بأنّ القانون يستند لا على قوّة الله بل إلى محبة الله. ورغم أنّنا نعلم أنّ الله قادر على كلّ شيء، وما دمنا نعتقد أنّه لا يكثرث، فلن تكون هناك معجزة. ولتتمّ الأعجوبة، على الله أن يفرض إرادته، لكنّه لا يفعل ذلك، لأنّه في صميم علاقته بهذا العالم الساقط، هناك احترامه المطلق لحرية الإنسان وحقوقه. وحين تقول «آمنت ولذلك أنا أستنجد بك»، فهذا يعني «أنا أؤمن بأنك مستعدّ وراغب، بأنك مليء بالمحبة، وبأنك في الحقيقة مهتمّ بأدقّ التفاصيل وبكلّ حالة». وعندما توجد حبة الإيمان هذه تتأسّس علاقة صحيحة مع الله وتصبح الأعجوبة ممكنة.

فضلاً عن هذا النوع من أداة الشرط «إذا» المغلوطة، والتي تشير إلى شكنا بمحبة الله، هناك «إذا» شرعية أخرى. إذ نستطيع أن نقول «أنا أطلب هذا الأمر، فإذا كان يتوافق مع إرادتك، أو إذا كان هذا للأفضل، أو إذا لم تكن لديّ نيّة شريرة سرّية عندما أسأل». هذه الطريقة أكثر من شرعية وصحيحة، لأنّها تشير ضمناً إلى أنّنا نقف موقفاً غير واثق من أنفسنا، وكلّ صلاة طلبية يجب أن تقترن بأداة الشرط.

وبما أنّ الكنيسة هي امتداد لحضور الله في الزمان والمكان، فإنّ

كلّ مسيحيّ عندما يصليّ يجب أن يكون هو المسيح في الصلاة، مع أنّ هذا يفترض ضمناً نقاوة قلب لا نملكها.

صلوات الكنيسة هي صلوات يسوع، وبخاصّة في الليتورجيا، حيث فيها يسوع يصليّ. لكن، كل صلاة تتضمّن طلباً يجب أن تلازمها أداة الشرط.

في معظم الحالات، لا نعلم ما قد يصليّ يسوع في وضع معين، وهكذا نستخدم أداة الشرط، التي تعني أنّه بقدر ما نرى وبقدر ما نعرف إرادة الله فإنّ هذا ما نتمنّى أن يحدث ليتوافق ومشيتته. إلا أنّ أداة الشرط تعني أيضاً أن أضمنّ هذه الكلمات رغبتى بأن يحدث الأفضل، وهكذا يمكنك أن تعدّل هذا الطلب كيفما ترى على ضوء نيّتي، ... (رومية ٨: ٢٦). مثلاً، عندما نصليّ كي يتعافى إنسان، لسبب نراه أساسياً، فنحن فعلاً نضمّره الخير، لكننا لسنا قادرين على أن نفهم بالشكل الصحيح، كما أنّ توقيتنا ومخطّطنا قد يكونان غير صائبين. «إذا» تعني في هذه الحالة، أنّه على قدر ما أرى أين يكمن الصواب فليكن كذلك. ولكن، إذا كنت مخطئاً فلا تحاسبني على كلامي بل على نيّتي. الشيخ أمبروسيوس، من دير أوبتينا الروسيّ، امتلك القدرة على رؤية الخير في الإنسان. في أحد الأيام، قبض راسم الأيقونات في الدير مبلغاً كبيراً من المال، وكان على وشك أن يبدأ رحلة العودة إلى منزله. ولا بدّ من أنّه صليّ ليغادر الدير بسرعة. إلا أنّ الشيخ أمبروسيوس أعاقه، وعن قصد، ثلاثة أيام، وبهذا خلّصه من

كمين دبّره له أحد عمّاله بهدف قتله وسرقته. وعندما انطلق الفنّان أخيراً في طريقه كان الشريك قد ترك مكمنه. ولم يكتشف هذا الرسام أنّ الشيخ حماه من هذا الخطر إلاّ بعد سنوات.

أحياناً نصليّ من أجل شخص نحبه، وهو محتاج ولا نقدر نحن على مساعدته. وفي أغلب الأوقات، نحن لا نميّز الأمر الصحيح، ولا نجد الكلمات التي تعين من هم الأحبّ على قلبنا. ومرات كثيرة نجد أنّ الصمت هو أنجع الحلول، مع أنّنا قد نضجّي بحياتنا لمساعدتهم. بهذه الروحية يمكننا أن نلجأ إلى الله ونسلمه القضية ونقول: «يا الله العالم بكلّ شيء ويا من محبّته كاملة، تعهّد هذه الحياة وافعل ما أصبو إليه ولكن لا أستطيع فعله». الصلاة التّزام، ولا نستطيع أن نصليّ بحرارة لهؤلاء الذين لسنا نحن على استعداد لمساعدتهم. ومع إشعياء علينا أن نستعدّ لسماع كلمات الربّ «من أرسل، ومن ينطلق لنا؟» وأن نجيب «هاءنذا فأرسلني». (إشعياء ٦: ٨).

يرتعب كثيرون من فكرة الصلاة للميت، ويتساءلون عن جدواها وهدفها. هل سيتغيّر مصير الميت إذا صلّينا له؟ هل ستقنع الصلاة الله بأن يعطي الميت ما لا يستحقّه؟

إذا كنت تؤمن بأنّ الصلاة للأحياء تساعدكم فلماذا لا تضلّي للأموات؟ فالحياة واحدة كما يقول القديس لوقا: «هو ليس إله أموات بل إله أحياء» (٢٠: ٣٨). الموت ليس نهاية بل مرحلة في مصير الإنسان،

وهذا المصير لا يتوقّف عند لحظة الوفاة. والمحبة التي تعبّر عنها صلاتنا لا يمكن أن تكون بلا فائدة. إذا كانت المحبة قادرة على الأرض ولا قوة لها بعد الوفاة، فهي تناقض كلمات الكتاب المقدّس التي تقول إنّ المحبة قويّة كالموت (الأناشيد ٨: ٦). وخبرة الكنيسة هي أنّ الحبّ أو المحبة أكثر قوة من الموت، لأنّ المسيح هزم الموت بمحبّته للبشر. من الخطأ الظنّ أنّ ارتباط الإنسان بالحياة على الأرض ينتهي بموته. في الحياة الإنسان يبذر بذارًا. وهذا البذار ينمو في نفوس الآخرين ويؤثّر في مصيرهم، والثمار التي تتولّد عن هذا الزرع هي ملك الذي يحملها وزارعها على السواء. الكلمات المكتوبة أو التي قالها الفلاسفة والشعراء والسياسيّون والواعظون، قد تغيّر حياة الناس أو مصير البشر، وتبقى من مسؤوليّة مؤلّفها، ليس فقط في الشرّ وإنما أيضًا في الخير. فمصير المؤلّفين لا بدّ من أن يتأثّر بالطريقة التي استخدموها ليؤثّروا في الذين أتوا بعدهم.

حياة كلّ إنسان تتوالى تردّداتها حتّى يوم الدينونة، ومصير الإنسان الأبديّ والنهائيّ تحدّده ليس فقط هذه الفترة القصيرة التي يقضيها على الأرض، إنّما أيضًا نتائج هذه الحياة بعواقبها الحسنة والسيّئة. فالذين تلقّوا الزرع كما في الأرض الخصبة يمكن أن يؤثّروا في مصير الراحلين، بالتضرّع إلى الله ليبارك الرجل الذي غيّر حياتهم وأعطى معنى لوجودهم. وبالتوجّه إلى الله بمحبّة صلبة وصابرة وبإخلاص واعتراف بالجميل، يدخلون هذا الملكوت الأبديّ الذي يتخطّى حدود الزمن ويمكنهم أن يؤثّروا

في مصير الراحل ووضعه. ليس هناك من عيب إذا سألنا الله، نحن لا نطلب أن يغفر للراحل زلاته، بل أن يباركه بسبب أعماله الحسنة التي تشهد عليها حياة الآخرين.

صلاتنا هي فعل محبة واعتراف بالجميل، طالما أن حياتنا هي امتداد لقضية دافع هو عنها. نحن لا نسأل الله أن يكون غير عادل، ولا نتخيل أننا أكثر شفقة منه أو أكثر محبة، وأيضًا لا نسأله أن يكون أكثر رحمة. نحن نقدّم دليلًا جديدًا أمام قضاء الله، ونصليّ لكي تؤخذ هذه البيّنة في الحساب، ولتأتي بركة الله بغزارة على الذي احتلّ مكانة كبيرة في حياتنا. من المهمّ أن نلاحظ أننا نصليّ ليس بغية إقناع الله بأمر ما، بل لنشهد أن هذا الراحل لم يعيش بطلاً.

كلّ إنسان كان مصدرًا للحبّ، بأيّة طريقة كانت، يستحقّ الدفاع عنه، وهذا منوط بالذين يشهدون على ما فعله لهم. هنا أيضًا ليست المسألة مسألة حسن نيّة أو انفعال. القديس إسحق السريانيّ قال: «لا تحوّل صلاتك إلى مجرد كلمات واجعل حياتك كلّها صلاة إلى الله». لهذا، إذا أردنا أن نصليّ للأموات يجب أن تدعم حياتنا هذه الصلاة. لا يكفي أن نذكرهم من حين إلى آخر، ثمّ أن نسأل الله أن يفعل شيئًا لهم. من الضروريّ أن تحمل كلّ بذرة حبّ وصدق وقداسة، أظهرها هؤلاء الأموات، ثمرة. عندها نستطيع أن نواجه الله قائلين: «لقد بذر بذارًا جيّدًا وتحلّى بمناقبيّة دفعني إلى عمل الصالحات، وهذا إذا يشكّل جزءًا من خلاصه».

في الكنيسة الأرثوذكسيّة موقف ثابت من الموت والدفن، فخدمة الجناز تبدأ «بمبارك هو الأب»، وعلينا أن نلاحظ مدى الثقل الذي تحمله هذه العبارة، لكون هذه الكلمات تقال رغم الموت ورغم الحزن والألم. ترتكز الخدمة على صلاة السجروهي خدمة المديح والنور، وأقرباء الفقيد يقفون حاملين الشموع المضاءة كرمز للقيامة. الفكرة الأساسيّة من الخدمة هي أنّنا حقيقة نواجه الموت، ولكنّ الموت لا يخيفنا بعد اليوم عندما نراه عبر قيامة الربّ يسوع.

وفي الوقت عينه، تعطينا هذه الخدمة معنى لهذا الغموض الذي يكتنف الموت، بوجهيه. الموت لا يمكن أن يكون مقبولاً، إنّهُ شنيع. لقد خلقنا لنعيش، ومع ذلك في عالم بشّعه خطايا البشر، الموت هو المخرج الوحيد. وإذا كان عالمنا مطبوعاً بالخطايا الثابتة والأبدية فهو الجحيم. الموت هو وحده يسمح للأرض بأن تهرب من هذا الجحيم.

تدرك الكنيسة هذين الوجهين، إذ كتب القديس يوحنا الدمشقيّ حول هذا الموضوع بواقعية قصوى وفطنة، لأنّ المسيحيّ لا يمكنه أن يكون شاعريّاً أمام الموت. الموت هو الموت بالطريقة ذاتها التي عندما نتحدّث بها عن الصليب علينا أن نتذكّر أنّه آلة الموت. الموت هو الموت بكلّ بشاعته ومأساته، ومع ذلك في نهاية المطاف الموت هو الشيء الوحيد الذي يعطينا الأمل. فنحن من جهة نتوق إلى الحياة، ومن جهة أخرى إذا تشوّقنا إلى الحياة فنحن نتوق إلى الموت لأنّه في هذا العالم المحدود من المستحيل أن

نعيش على أكمل وجه.

هناك انحلال بالتأكيد، لكنّ هذا الانحلال وبالتلازم مع نعمة الربّ يفضي إلى مستوى حياة لا يمكن أن نصل إليه إلا عبر هذا الطريق. «الموت ربح» كما يقول القدّيس بولس (فيلبّي ١: ٢١)، لأنّ الحياة في هذا الجسد الذي نتّخذة تفصلنا عن يسوع. وعندما نصل إلى هذا المستوى من الحياة، بالاستقلال عن الزمن، علينا أن نترك هذه الحياة المحدودة لندخل حياة أبدية. تقام خدمة الجنّاز في الكنيسة الأرثوذكسيّة حول النعش المكشوف لأنّ الإنسان ما يزال يعتبر واحدًا، جسدًا وروحًا، يحظيان كلاهما معًا باهتمام الكنيسة. لقد أعدّ الجسد للدفن فالجسد ليس قطعة من قماش رثّ، كما يقول بعض الورعين، نُبذ لتحرّر الروح. بالنسبة إلى المسيحيّ، الجسد هو أكثر من ذلك، إذ لا شيء يصيب الروح ولا يتأثّر به الجسد. نحن نحصل على انطباعات عن هذا العالم، وأيضًا عن العالم الإلهيّ، وذلك جزئيًّا عبر الجسد. كلّ سرّ هوبة من الله تمنح إلى الروح بواسطة حركات جسديّة، مياه المعموديّة، زيت الميرون، الخبز والخمر في القرايين المقدّسة، هذه كلّها تؤخذ من العالم الماديّ. لا يمكننا أن نصنع الخير أو الشرّ إلا بالتلازم مع الجسد. الجسد ليس موجودًا فقط كرداء للروح التي تولد وتنضج ثمّ تزول تاركة الجسد. الجسد من اليوم الأوّل وحتى اليوم الأخير، هو مشارك في عمل الروح في كلّ الأشياء، والاثنان معًا يشكّلان الإنسان الكامل. وسيبقى مطبوعًا إلى الأبد بختم الروح والحياة المشتركة

التي أمضيهاها سوِيّة.

الجسد مرتبط بالروح، وهو أيضًا مرتبط، بواسطة الأسرار، بيسوع المسيح نفسه. نحن نتناول دمه وجسده، وهذا يتّحد الجسد بالعالم الإلهي الذي احتكّ به. جسد من دون روح هو جثة هامدة وليس في إطار اهتمامنا. وروح من دون جسد، حتّى روح القديس التي تذهب مباشرة إلى السماء، لا تستمتع بالنعيم الذي يدعى إليه الإنسان الكامل في آخر الأزمنة، عندما يشعّ مجد الله عبر الروح والجسد.

وكما يقول القديس إسحق السرياني، حتّى النعيم الأبدي لا يمكن أن يفرض على الإنسان من دون موافقة الجسد. من العجب أن نجد هذا التعليق على أهميّة الجسد في أقوال القديس إسحق السرياني، الذي هو أحد كبار النساك، واحد من هؤلاء الذين يقول عنهم الناس إنّه أمضى حياته وهو يقتل جسده. لكن، في كلمات القديس بولس، الزاهد يقتل جسد الخطيئة، يخلّصه من الفساد (رومية ٦: ٦)، ولا يقتل الجسد ليحرّر الروح من السجن. هكذا تهتمّ الكنيسة بجسد الميت حتّى ولو كان جسدًا خاطئ. وكلّ الرعاية التي تقوم بها للإنسان الحيّ لا تقارن بالإكرام الذي يظهر في خدمة الجنّاز.

وبالطريقة ذاتها، الجسد مرتبط بالروح في حياة الصلاة. كلّ انحراف وفساد وانغماس ينجرّف إليه جسدنا، ينحلّ بفعله تاليًا عضو من هذه الشراكة مؤدّيًا الطرف الآخر. وبتعبير آخر، الإساءة التي تفرض من الخارج

يمكن تخطيها بواسطة الصلاة، أمّا الإساءة التي يجلبها الإنسان على نفسه فهي تدمر الصلاة.

ميزة الصلاة عند المسيحيّ هي أنّها صلاة المسيح، وصلت إلى أبيه، من جيل إلى جيل، في أوضاع متجدّدة على الدوام، بواسطة أشخاص كانوا بالنعمة والمشاركة، حضور المسيح في هذا العالم. إنّها صلاة إلى الله لا تنقطع، لتتحقّق مشيئته، وليتمّ كلّ شيء وفق مخطّطه العاقل والمحّبّ. وهذا يعني أنّ صلاتنا هي أيضًا جهاد ضدّ كلّ ما هو منافٍ للمسيح. نحن نحضّر الأرضيّة لصلاتنا في كلّ مرّة نبعد كلّ ما هو ليس للمسيح ولا يليق به. وحدها صلاة، كما يقول القديس بولس «أنا أحياء ولست أحياء بل المسيح يحيا فيّ» (غلاطية ٢: ٢٠) هي صلاة مسيحيّة حقّ.

ومع ذلك بدلاً من أن نصليّ لتكون مشيئة الله، نحن أحياناً نحاول أن نقنع الله ليقوم بأشياء نريدها. كيف يمكن لهذا النوع من الصلاة ألاّ يبطل؟

مهما صلينا جيّداً، علينا أن ندرك في كلّ لحظة أنّ أفضل فكرة عندنا هي خاطئة. ومهما صدقت نيّاتنا ومهما كانت كاملة، فكلّ صلاة قد تنحرف في وقت ما، ولهذا السبب بعد أن نكون قد قلنا كلّ شيء لله، علينا أن نضيف على غرار ما قاله يسوع في حديقة الجثسمانيّة «لتكن مشيئتك لا مشيئتي» (متّى ٢٦: ٣٩). بهذه الرُوحية يمكننا أن نستعين بشفاعَةِ القديسين، فنحن نعلمهم بنيّاتنا الطيّبة ونترك لهم أن يصوغوها بالتوافق

مع مشيئة الله التي يعلمونها.

«إسألوا تعطوا» (متّى ٧: ٧)، هذه الكلمات هي شوكة في الضمير المسيحيّ، إذ لا يمكن قبولها أو التخلّي عنها. فرفضها يعني أنّنا نرفض لطف الله اللامحدود، ولكنّا لسنا مسيحيّين بعد كفاية لنقبلها. نحن نعلم أنّ الأب لن يعطي حجرًا بدلًا من الخبز (متّى ٧: ٩)، ولكن نحن لا نعتبر أنفسنا أطفالاً يعون حقيقة حاجاتهم ويميّزون بين صالحها وطالحها. ومع ذلك هنا يكمن تفسير العديد من الصلوات غير المستجابة. ونجده أيضًا في كلمات القديس يوحنا الذهبيّ الفم «لا تحزن إذا لم تحصل فورًا على ما تطلب. فالله يريد لك أن تستفيد أكثر عبر مثابرتك على الصلاة». ألا يمكن أن يكون صمت الله مظهرًا أو شكلاً من صممنا.

مرّة ثانية «أقول لكم إذا اتّفق اثنان منكم في الأرض على طلب أيّ حاجة كانت، حصلّا عليها من أبي الذي في السماوات» (متّى ١٨: ١٩). يستعمل هذا الاستشهاد، في بعض الأوقات، كعصا لتأديب المسيحيّين، لأنّه أحيانًا كثيرة يطلب أشخاص عديدون، وبإلحاح، أشياء كثيرة ولا تعطى لهم. إلّا أنّ الاعتراض يسقط عندما يتبيّن أنّ التكاتف عاليّ الصبغة، فالاتّفاق هو ائتلاف وليس وحدة، والإيمان بأنّ الله قادر على أن يفعل ما يشاء يُفسّر بالطريقة ذاتها التي استخدمها معزّو أيّوب.

أمّا بالنسبة إلى عدم الصدق في قول إنّ «كلّ الأشياء التي تسألونها في الصلاة تعطى لكم» (متّى ٢١: ٢٢)، فتجيب عنها صلاة يسوع في حديقة

الجثسمانيّة والقديس بولس في عبرانيّين (١١: ٣٦-٤٠): «وبعضهم الآخر عانى السخرية والجلد، فضلاً عن القيود والسجن. ورُجموا ونُشروا وماتوا قتلاً بالسيف وهاموا على وجوههم، لباسهم جلود الغنم وشعر المعز، محرومين مضايقين مظلومين، لا يستحقّهم العالم، وتاهوا في البراري والجبال والمغاور وكهوف الأرض. وهؤلاء كلّهم تلقّوا شهادة حسنة بفضل إيمانهم، ولكنّهم لم يحصلوا على الموعد، لأنّ الله قدّر لنا ما هو أفضل لكيلا يدركوا الكمال من دوننا».

طبعاً في هذه الأوضاع كافّة، كان هناك مقدار هائل من الصلاة، ربّما ليس لخلاص هؤلاء الذين كانوا على استعداد للتضحية بحياتهم في سبيل الله، ولكن للمعونة، ومع ذلك لم يعطوا ما كانوا يتوقّعونه.

عندما يرى الله أنّ إيمانك قادر على احتمال صمته أو على قبول العذاب المعنويّ أو المادّي، ولتحقيق ملكوته، قد يبقى صامتاً وفي النهاية تستجاب الصلاة ولكن بطريقة مختلفة تماماً عمّا توقّعت.

يقول القديس بولس حول صلاة يسوع في حديقة الجثسمانيّة، إنّ صلاته سُمعت (عبرانيّين ٥: ٧). والله أقامه من بين الأموات. القديس بولس لا يتحدّث هنا عن جواب فوريّ من الله الذي كان قادراً على إبعاد الكأس، وهذا ما طلبه يسوع، ولكن في الحقيقة الله أعطى يسوع القوّة على القبول وعلى الألم وإتمام عمله، وإيمانه المطلق حمل الله على القول لا أو على الجواب بالنفي. وأيضاً إيمان يسوع المطلق هذا جعل خلاص العالم ممكناً.

صلواتنا فيها الكثير من الطلبات، ويعتبر الناس أنّ الطلبة هي أدنى مستوى للصلاة، يلهمها العرفان بالجميل ثمّ المديح. لكن في الحقيقة، الاعتراف بالجميل والمديح هما اللذان يعبران عن علاقة أدنى. في حالتنا المتمثلة بإيمان ضعيف، من الأسهل أن نرتّل ترانيم مديح لله وشكر أكثر من أن نطلب شيئاً ما بإيمان. حتّى الأشخاص الذين يؤمنون بالله يتوجّهون إليه بالشكر في حال حدوث شيء جميل، وهناك أوقات ابتهاج يستطيع خلالها الجميع أن يرثموا لله. إلّا أنّه من الصعب جدّاً أن يكون هناك إيمان غير منقسم، كأن يسأل المرء بكلّ قلبه وبكلّ عقله وبثقة تامة. لا أحد يجب أن يرتاب عندما يتلو صلاة طلبة لأنّ في ذلك امتحاناً لإيماننا. عندما أتت أمّ ابنيّ زبدي لتسأل يسوع عن أفضل مكانين في الفردوس لابنهما، جاءت بثقة تامة بأنّ الله قادر على أن يلبيّ طلبها. كانت تفكر بقوة المسيح على الاستجابة لطلبها وبأنّ الله سيعمل بالتوافق مع مشيئته، وهذا لا يتطابق مع تعليم الربّ الذي يقول في إنجيل يوحنا (٥: ٣٠): «أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً من عندي بل أحكم على ما أسمع وحكمي عادل، لأنّي لا أتوخّى مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني».

ما توقّعته أمّ ابنيّ زبدي هو أنّ الربّ سيلبيّ طلبها ويفضّلها، لأنّها كانت أوّل من قدّم هذا الطلب. ورفض يسوع أشار إلى أنّ ما تطلبه الأمّ كان موضع فخر في ملكوت الله، في حين يتركز هذا الملكوت على التواضع والدعة. صلاة الأمّ كانت مشروطة بموقف العهد القديم إزاء مجيء المسيح.

الفصل السادس

صلاة يسوع

من قرأ كتاب «سائح روسي على دروب الرب» يعرف جيّدًا عبارة «صلاة يسوع». وهي تشير إلى صلاة قصيرة تكرر على الدوام: «يا يسوع ابن الله ارحمني أنا الخاطئ». سائح روسي على دروب الرب يحكي قصّة رجل أراد أن يتعلّم كيف يصلي باستمرار ومن دون انقطاع (١ تسك ٥: ١٧). وبما أنّ هذه القصّة تدور حول خبرة حاجّ، فقد تحكّمت طريقة حياته الفريدة بخصائصه النفسيّة، وبالوسيلة التي اعتمدها ليتعلّم الصلاة ويطبّقها، وهذا ما يجعل الكتاب أقلّ قابليّة للتطبيق على مستوى عالمي. ورغم ذلك، تبقى هذه السيرة أفضل مقدّمة للصلاة التي هي واحدة من أهمّ الكنوز الأرثوذكسيّة.

تجد هذه الصلاة جذورها العميقة في الإنجيل المقدّس، وليس عن عبث أنّ كبار المعلّمين، في الكنيسة الأرثوذكسيّة، أصرّوا دائمًا على حقيقة أنّ صلاة يسوع تلخّص الإنجيل بأكمله. ولهذا السبب تأخذ صلاة يسوع

معناها الكامل، إذا كان المصلّي ينتمي إلى الإنجيل وكان عضوًا في الكنيسة.

كلّ تعاليم الإنجيل، وأكثر من ذلك كلّ حقيقة الإنجيل، نجدها متضمّنة في اسم يسوع وشخصه. إذا أخذنا الجزء الأوّل من الصلاة نتبيّن كيف أنّه يعبر عن إيماننا بالربّ «يا يسوع المسيح ابن الله». في القسم الثاني عندنا اسم يسوع، إنّهُ اسم تجثوله كلّ ركبة (إشعياء ٤٥: ٢٣)، وعندما ننطق به نوّكّد حدث التجسّد التاريخي. وثبتت، في الوقت عينه، أنّ الله، كلمة الله، الأزليّ مع الآب، أصبح إنسانًا، وأنّ كمال الألوهيّة يحلّ في وسطنا، جسديًا (كولوسي ٢: ٩).

أن ترى في الرجل الذي من الجليل، في نبيّ إسرائيل، كلمة الله المتجسّد، أي الله الذي أصبح إنسانًا، فهذا يجب أن يقودنا الروح إليه، لأنّ روح الله هو الذي يكشف لنا تجسّد المسيح وربوبيّته. نسمّيه المسيح وبذا نوّكّد أنّ به تمّت نبوءات العهد القديم. التأكيد أنّ يسوع هو المسيح يعني أنّ كل تاريخ العهد القديم هو لنا، وأنّنا نقبله كحقيقة الله. نحن ندعوه ابن الله، لأنّنا نعلم أنّ المسيح الذي كان ينتظره اليهود، الرجل الذي دعاه برطيماوس «ابن داود»، هو ابن الله المتجسّد. هذه الكلمات تلخّص كلّ ما نعرفه حول يسوع المسيح، وكلّ ما نؤمن به، من العهد القديم إلى الجديد، ومن خبرة الكنيسة على مدى العصور. بهذه الكلمات القليلة، نعلن إيماننا التامّ والكامل.

إلا أنّ هذا الاعتراف الإيمانّي وحده لا يكفي؛ نعم لا يكفي أن نؤمن.

الشياطين أيضًا تؤمن وترتعد. الإيمان لا يكفي للخلاص، عليه أن يقود إلى علاقة جيّدة مع الله؛ وهكذا بإعلاننا إيماننا بربوبية المسيح، وتاريخيته وألوهيته، باستقامة ووضوح ودقّة، نواجهه قائلين «ارحمني أنا الخاطئ».

هذه العبارة «يا ربّ ارحم»، تستخدم في كلّ الكنائس المسيحيّة، وفي الأرثوذكسيّة، هي جواب الشعب عن كلّ الطلبات التي يتلوها الكاهن. ترجمتنا الحاليّة «ارحم» محدودة وغير وافية. العبارة اليونانيّة التي نجدها في الإنجيل وفي الليتورجيا القديمة هي «إليسون»، وهذه الكلمة هي من جذر كلمة ثانية هي إليون التي تعني شجرة الزيتون والزيت المستخرج منها. إذا بحثنا، في العهدين القديم والجديد، عن المقاطع المرتبطة بهذه الفكرة الأساسيّة، وجدنا وصفًا لها في مجموعة من الأمثال والأحداث، التي تسمح لنا بتكوين فكرة كاملة حول معنى هذه الكلمة. منها صورة شجرة الزيتون في كتاب التكوين. وبعد الفيضان أرسل نوح طيورًا، الواحد تلو الآخر، ليعرف إذا ما جفّت الأرض أو لا، وحدها الحمامة هي التي عادت بغصين زيتون، نقلت إلى نوح، وكلّ من معه في الفلك، خبر أنّ غضب الله قد توقف، وأنّ الله يقدّم للإنسان فرصة أخرى. كلّ الذين كانوا في الفلك سيستطيعون الاستقرار ثانية على أرض صلبة، ويحاولون أن يعيشوا من جديد من دون أن يتعرّضوا لغضب الله، هذا إذا تمكّنوا من ذلك.

في العهد الجديد، وفي مثل السامريّ الصالح، سُكب زيت الزيتون على الجرح ليداويه ويشفيه. خلال تكريس الملوك والكهنة في العهد

القديم، أيضًا الزيت يُصبّ على الرأس، دلالة على أنّ نعمة الربّ تحلّ على هؤلاء (مز ١٣٣: ٢) وتمنحهم السلطة الجديدة ليقوموا بما يفوق القدرة البشريّة. فالملك يقف على الحدّ الفاصل بين إرادة الإنسان وإرادة الله، ويدعى إلى قيادة شعبه لإتمام مشيئة الله. في حين يقف الكاهن، كذلك، على تلك العتبة ليعلن مشيئة الله، وليقوم بأكثر من ذلك، أي ليعمل لله ولينطق بأحكامه وينفّذ قراراته.

ينبئ الزيت، أولاً، عن انتهاء غضب الربّ، وعن السلام الذي يقدّمه الله للشعب الذي أهانه وأساء إليه. بعد ذلك يعبرّ الزيت عن شفاء الله لنا لنعيش ولنصبح ما نحن مدعوّون إليه. وبما أنّه يعلم، أنّنا لسنا قادرين، بقوّتنا الخاصّة، على إتمام مشيئته أو قوانين طبيعتنا المخلوقة، فهو يسكب علينا نعمته بغزارة (رو ٥: ٢٠). هو يعطينا قوّة لنقوم بما ليس لنا قدرة عليه من دون نعمته.

إذا عدنا إلى صلاة يسوع «يا يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطيء»، نلاحظ أنّ الكلمات الأولى تعبرّ بدقّة واستقامة عن إيمان الإنجيل بالمسيح وبالتجسّد التاريخي لكلمة الله. كما تعبرّ نهاية الصلاة عن علاقة الحبّ الكبيرة والمعقّدة الموجودة بين الله وخليقته.

صلاة يسوع يعرفها الأرثوذكس أينما حلّوا، إمّا كقاعدة صلاة أو علامة تقوى، تُتلى في أيّ وقت من الأوقات ومهما كانت المناسبة. كتاب كثر أشاروا إلى الحالة الجسديّة عند تلاوة هذه الصلاة، من

تمارين التنفّس والانتباه إلى دقّات القلب وبعض الملامح الثانوية الأخرى. الفيلوكاليا غنيّة بالتوجيهات حول صلاة القلب، وهناك حتّى ذكر للتقنيّات الصوفيّة. الآباء الأقدمون والمعاصرون عالجوا هذا الموضوع، واستخلصوا النتيجة ذاتها التي تقضي بعدم تجربة التمارين الجسديّة من دون إشراف مباشر يقوم به الأب الروحيّ.

المتداول اليوم وبإشارة من الله، هو تكرار الكلمات من دون أيّ حركات جسديّة، وبالتحديد حركات اللسان، التي قد يستعان بها للوصول إلى تغيير داخليّ. أكثر من أيّة صلاة أخرى، تهدف صلاة يسوع إلى أن نقف في حضرة الله ونكون وحدنا معه.

استخدام هذه الصلاة مزدوج، فهي أولاً، فعل عبادة كغيرها من الصلوات، وثانيّاً على المستوى الزهديّ، هي تسمح لنا بتركيز انتباهنا في حضرة الله.

إنّها صلاة رقيقة ومشجّعة، حاضرة على الدوام، وهي أيضاً فرديّة رغم تكرارها الرتيب. في أوقات الفرح أو الحزن، عندما يعتادها الإنسان، تصبح هذه الصلاة دواءً ينعش النفس. تذكّرنا كلمات القديس سمعان اللاهوتيّ الحديث بتأثير هذه الصلاة فينا: «لا تهتمّ لما سيحدث لاحقاً، ستكتشفه في حينه».

الفصل السابع

الصلاة النسكية

عندما نكون في حالة من صفاء الذهن، وقلبنا مفعم بالإيمان وبالاهتمام بالآخر، وعندما ينطق لساننا من فيض القلب على حسب قول القديس لوقا (٦: ٤٥)، عندئذٍ لن تكون هناك أية مشكلة في الصلاة. فنحن نتحدّث مع الله بحريّة وبكلمات مألوفة. ولكن، إذا تركنا حياة الصلاة تحت رحمة مزاجنا، قد نصلي ربّما من حين إلى آخر، بحرارة وصدق، إلا أنّنا بذلك، نخسر مراحل طويلة من الاتصال الصلّاتيّ بالله. إنّها لتجربة قويّة أن نؤجّل الصلاة إلى حين نشعر أنّنا في حضرة الله، ونعتبر أنّ أيّ صلاة أو حركة باتّجاه الله، في مراحل أخرى تفتقر إلى الإخلاص والصدق. نحن جميعاً، نعلم بالخبرة أنّنا نملك مجموعة مشاعر لا تتصدّر حياتنا في كلّ دقيقة، فالمرض واليأس قد يمحوان هذه المشاعر من ضميرنا. حتّى عندما نحبّ بعمق، هناك أوقات لا نحسّ بهذا الحبّ ولا نعرف أنّه يعيش فينا. والأمر صحيح بالنسبة إلى الله، فهناك أسباب داخلية وخارجية يصعب

أحيانًا علينا، معها، أن نعي حقيقة إيماننا، وأننا نملك الرجاء وأننا نحب الله. في أوقات كهذه، علينا أن نعمل لا بحسب قوة ما نشعر به، بل وفق قوة ما نعرفه. ينبغي لنا أن نؤمن بما هو في داخلنا، مع أننا لا ندركه في ذلك الوقت بالذات. علينا أن نتذكر أن الحب ما زال موجودًا، رغم أنه لا يملأ قلوبنا فرحًا وإلهامًا. علينا أيضًا أن نواجه الله متذكّرين أنه محبّ دائمًا وحاضر دومًا رغم أننا لا نشعر بذلك.

حين نمرّ بأوقات برودة وجفاء، عندما تبدو صلاتنا ادّعاء مزيفًا ناجمًا عن رتابة مضجرة، ماذا نفعل؟ هل من الأفضل أن نتوقّف حتّى تعود الحياة إلى صلاتنا من جديد؟ لكن كيف نعلم أن الوقت قد حان؟ قد يداهمنا خطر الافتتان بإتقان الصلاة في حين نكون بعيدين جدًّا عن هذا الإتقان. عندما تكون الصلاة جافّة ماذا نفعل؟ عوض أن نتراجع ونستسلم علينا أن نتابع المسيرة بإيمان أكبر، ونقول لله: «أنا مرهق ومنهك ولا أستطيع الصلاة. تقبّل يا ربّ هذا الصوت الرتيب وكلمات الصلاة وساعدني». إجعل من الصلاة موضوع كمّيّة حين لا تستطيع أن تجعل صلاتك نوعيّة. بالطبع من الأفضل أن تقول «يا ربّ» بعمق وإحساس، بدلًا من تكرار الصلاة الربّانيّة اثنتي عشرة مرّة، لكننا لا نقوى على ذلك أحيانًا. أن تكون الصلاة كمّيّة لا يعني أن نتفوّه بكلمات أكثر من المعتاد، بل أن نلتزم القاعدة التي تقول بالصلاة التي نعتمدها، وأن نقبل حقيقة أنها مجرد تكرار كلمات محدودة. وبحسب قول الآباء، الروح القدس

موجود دائماً أثناء الصلاة، ووفق القديس بولس الرسول «لا يستطيع أحد أن يقول: «يسوع رب» إلا بإلهام من الروح القدس» (١ كور ١٢: ٣).
إنَّه الروح القدس، الذي في الوقت المناسب، يملأ الصلاة بمعنى الحياة الجديدة وبعمقها. عندما نقف أمام الله في أوقات الاكتئاب، يجب علينا أن نستخدم إرادتنا ونصلي عن اقتناع إن لم يكن عن إحساس، انطلاقاً من إيماننا، وفكرياً إن لم يكن بقلب حارّ.

في أوقات كهذه، تبدو الصلاة مختلفة بالنسبة إلينا، لكن ليس بالنسبة إلى الله. في فترات الجفاف هذه، حين تغدو الصلاة جهداً، معيناً الوحيد هو الإخلاص والعزم. بعزيمتنا نُجبر أنفسنا على أن نقف أمام الله، ونتحدّث إليه لمجرّد أنّه الله ونحن خليقته. ومهما كان شعورنا، في وقت ما، يبقى موقفنا هو ذاته، ويبقى الله باريناً ومخلّصيناً وربّنا والجهة التي نتحرّك نحوها، والهدف الذي نصبو إليه والمصدر الوحيد الذي يمنحنا الاكتفاء.
أحياناً نشعر أنّنا غير جديرين بالصلاة وأنّه لا يحقّ لنا أن نصلي وهذا أيضاً إغراء. كلّ نقطة ماء أيّاً كان مصدرها، البركة أو المحيط، تتنقّى في عمليّة التبخّر، وهكذا كلّ صلاة متّجهة نحو الله. وكلّما شعرنا باكتئاب وغمّ، تعاظمت الحاجة إلى الصلاة، وهذا ما أحسّ به يوحنا كرونشتادت يوماً حين كان يصلي، وكان شيطان يراقبه ويتمتم: «يا خبيث كيف تجرّو على الصلاة وذهنك شرّير وقذر، مليء بالأفكار التي أقرأها؟» فأجاب: «لأنّ رأسي مليء بالأفكار التي لا أحبّها وأحارّها، لهذا أصلي إلى الله».

إذا كنّا نصليّ صلاة يسوع أو غيرها يتساءل الناس أحياناً: كيف يحقّ لي أن أختار هذه الصلاة؟ كيف أستعمل هذه الكلمات كما لو كانت لي؟ عندما نستعين بكلمات كتبها القديسون ورجال الصلاة، فهذه الصلوات هي نتيجة خبرتهم، ويمكننا أن نتأكّد، إذا كنّا يقظين إلى حدّ ما، أنّ هذه الكلمات تصير ملكنا ونحن ننمو عبرها ونتقوّل بنعمة الله، الذي يستجيب لنا ولجهدنا. مع صلاة يسوع الوضع أسهل، لأنّنا حين نقف أمام الله، كلّ ما نستطيع قوله هو «يا ربّ ارحم».

في أغلب الأحيان، نقرّ، في داخلنا، بأنّنا نصليّ على أمل أن تحدث استنارة ما، أو أن نخبر أمراً مثيراً. هذا خطأ على شاكلة الخطأ الذي نرتكبه، أحياناً، في علاقاتنا مع الناس بحيث ندمّر هذه العلاقة تماماً. نحن نقرب من شخص ما ونترقّب نوعاً من التجاوب، وعندما لا نحصل على نتيجة يخيب أملنا. عندما نصليّ علينا أن نتذكّر أنّ الربّ الإله، كما ترك لنا حرّيّة المثل في حضرته، هو أيضاً حرّ تجاهنا، وهذا لا يعني أنّ الحرّيّة التي يتسلّح بها هي اعتباطيّة على شاكلة حرّيّتنا، التي تكون لبقّة أو متعجّرفّة تبعاً لمزاجنا، لكنّه ليس مضطراً إلى أن يكشف نفسه لنا لمجرّد أنّنا أتينا إليه ونظرنا نحوه. من المهمّ جدّاً أن نتذكّر أنّ الله حرّ، ونحن أيضاً أحرار في أن نقرّر الحضور أو التغيب. وهذه الحرّيّة مهمّة جدّاً لأنّها ميزة خاصّة لعلاقة حقيقيّة.

إحدى السيّدات، وبعد حياة صلاة كان الله فيها مألوفاً وقريباً، فجأة

فقدت كلّ اتّصال بالله كليّاً. لكن أكثر من شعورها بالأسى على فقدانه، كانت تخشى إغراء تجربة الهروب من حضور الله عبر تصوّر حضور مزيف له. لأنّ غياب الله الحقيقيّ وحضوره هما دليان على حقيقته وعلى العلاقة الملموسة معه، واللّتين تتضمّنهما الصلاة.

هكذا إذًا، علينا أن نستعدّ لتقديم صلاتنا ولتقبّل ما قد يقدمه الله لنا. هذا هو المبدأ الأساس في الحياة النسيكيّة. وخلال الجهاد الذي نقوم به لنبقى متّجهين نحو الله، ونحارب كلّ ما قد يبدو ضبابيّاً ويمنعنا من النظر إلى الله، لا يمكن أن نكون ناشطين أو غير مباليين، ناشطين بمعنى أن نجهد أنفسنا ونقلق، فنحن لا نستطيع أن نصعد إلى السماء ولا أن نُنزل الله من السماء. وفي الوقت ذاته، لا نكون غير مباليين ومستسلمين، قابعين من دون أيّ عمل لأنّ الله لا يتعامل معنا على أنّنا خاضعون له. فالعلاقة لن تكون حقيقيّة وصحيحة إذا نحن تصرّفنا نزولاً عند أوامره. الموقف النسيكيّ ناجم عن يقظة. الجنديّ اليقظ الذي يقف طيلة الليل ثابتاً في مكانه، قدر الإمكان، متيقظاً ومتنبّها لما يجري حوله، مستعدّاً للتجاوب بالطريقة الصحيحة وبالسّعة المطلوبة مع أيّ طارئ. من جهة، هو ساكن لأنّه يقف ولا يعمل شيئاً، ومن جهة أخرى، هو في حالة نشيطة جدّاً، لأنّه متيقّظ وقد استجمع قواه. هو يسمع ويراقب بدقّة، حاضر لكلّ شيء.

في الحياة الروحيّة الوضع مماثل، علينا أن نقف في حضرة الله بسكون تامّ، رابطي الجأش، يقظين وثابتين. قد ننتظر لساعات أو لمُدّة

أطول، ولكن يأتي وقت نُكافأ فيه على يقظتنا. لكن أيضًا إذا كنّا يقظين، علينا أن نتنبّه لأيّ شيء قد يحدث، وأن نستعدّ لنتقبّل ما يأتي من الله. إذا صلّينا وشعرنا بدفء ما، نقع بسهولة في تجربة المثلّول أمام الله، في اليوم التالي، متوقّعين حدوث الشيء ذاته. إذا كنّا، في الماضي، صلّينا بدفء أو بدموع، بفرح أو بندم، ونأتي إلى الله باحثين عن الخبرة السابقة، وفي أغلب الأحيان، لأنّنا نبحث عن الماضي، فنحن نفوّت علينا فرصة الاتّصال الجديد مع الله.

اقتراب الله منّا، قد يعبر عنه بطرائق مختلفة، قد يكون بالفرح، بالخوف، بالندم والأسف أو بأيّة طريقة أخرى. علينا أن نتذكّر أنّ ما ندركه اليوم، هو مجهول بالنسبة إلينا، لأنّ الله الذي عرفناه بالأمس، قد يكشف نفسه غدًا على نحو مغاير.

الفصل الثامن

صلاة الصمت

الصلاة هي، قبل كل شيء، لقاء مع الله. في بعض الحالات قد نشعر بحضور الله، وأغلب الأحيان بشكل خافت، إلا أنّ هناك لحظات نضع خلالها أنفسنا أمامه فقط، بفعل الإيمان من دون أن نعي حضوره. ليست درجة إدراكنا هي المرتبطة بهذا اللقاء ولا هي التي تجعله ممكنًا ومثمرًا. شروط أخرى يجب أن تتوفر أهمّها أن يكون الإنسان المصلّي صادقًا. في الحياة الاجتماعيّة، عندنا مجموعة أوجه لشخصيّتنا. الإنسان نفسه يبدو متناقضًا في أكثر من حالة، فهو أمر حازم في أوضاع عمله، وخاضع في بيته، ومختلف بين أصدقائه. كلّ نفس مركّبة، لكن ولا واحدة من هذه الشخصيّات الخداعة أو المزوّفة هي شخصيّتنا الحقيقيّة التي تستطيع أن تقف وتنطق باسمنا في حضور الله. هذا يضعف صلاتنا ويخلّف انقسامًا في العقل والقلب والإرادة. وكما يقول بولينوس في هاملت: «كن صادقًا مع نفسك وهي تتبعك كما يلي الليل النهار، وهكذا لا يمكن أن تكون مخطئًا

مع أحد».

لتجد نفسك الحقيقية بين هذه الشخصيات المزيفة، فهذا يكلّفك جهدًا كبيرًا. نحن لم نتعوّد أن نكون أنفسنا عن حقّ بحيث لا نعرف من أين نبدأ البحث. كلّا يعلم أنّ هناك لحظات نكون فيها أقرب ما يمكن إلى شخصيّتنا الحقيقيّة، لذا يجب دراسة هذه الأوقات وتحليلها حتّى نكتشف حقيقتنا. كبرياؤنا هو الذي يصعب علينا اكتشاف حقيقة نفسنا، وهو الذي يحدّد لنا طريقة سلوكنا. يكمن عمل الغرور في تعظيم الأشياء التي لا قيمة لها، ويتوقّف على حكمنا على أنفسنا، وتاليًا على كلّ موقفنا من الحياة، ورأي الآخرين فينا الذي يجب ألا يكون له هذا الثقل علينا. إنّها حالة اعتماد على ردود أفعال الآخرين على شخصيّتنا.

إذا الكبرياء أوّل عدوّ تجب مجابهته مع أنّه، كما يقول الآباء، يبقى آخر من يُهزم. نجد مثالاً نأخذ منه العبر على هزيمة الكبرياء في قصّة زكّا (لوقا ١٩: ١). زكّا هذا إنسان غنيّ يتمتّع بمنصب اجتماعيّ رفيع، وكان موظفًا إداريًا في الإمبراطوريّة الرومانيّة، هو جابي ضرائب وعليه أن يحافظ على مركزه. إنّّه إذا مواطن مهمّ في مدينته الصغيرة. لو اهتمّ زكّا لرأي الناس به لربّما توانى عن مشاهدة يسوع. لأنّه عندما سمع أنّ يسوع مارّ بأريحا، شعر برغبة قويّة تدفعه إلى رؤيته، بحيث لم يأبه لما سيقوله الناس عنه، وهذا بالنسبة إلينا أسوأ بكثير من الشرور الكبيرة، فركض هذا المواطن المحترم وتسلّق شجرة. قد يراه الجمع كلّه وقد يسخر منه الجميع، إلّا أنّ

رغبته كانت قويّة جدًّا فلم يكثر برأي الآخرين فيه. وللحظة استغنى عن حكم الآخرين، وفي تلك اللحظة كان هو نفسه، كان زكّا الإنسان، لا زكّا جابي الضرائب ولا زكّا الثري ولا زكّا المواطن.

التواضع طريقة من الطرائق التي تبعدنا عن التكبر، ولكن ما لم نقبل بها طوعًا فهي قد تعمّق الجرح وتجعلنا نعتمد أكثر على آراء الآخرين. ما قيل عن الكبرياء عند القديس يوحنا السليّ والقديس إسحق السرياني يتناقض. واحد يقول إنّ الطريقة الوحيدة للهروب من الكبرياء تكمن في الاعتداد بالنفس، والثاني يحصر الأمر في التواضع. الاثنان معًا يعبران عن رأيهما في إطار معيّن ولا يطلقان حقيقة، وهذا يسمح لنا بمعرفة الشيء المشترك بينهما، وهو أنّك إذا كنت متكبرًا أو متواضعًا فأنت لا تعطي أذنًا صاغية للآراء البشريّة، وفي الحالتين حكم الناس عليك لا يعينك ولا يؤثّر فيك. حياة القديس مكاريوس تضيء على الرأي الأوّل.

في أحد الأيام رأى القديس مكاريوس مجموعة من الرهبان يسخرون من راهب شابّ ويتمكّمون عليه، في حين كان هذا الأخير هادئًا وصامتًا، فتعجّب القديس من هذا السكون وشكّ في أمر الراهب وسأله كيف له، وهو شابّ لم يختبر الجهاد الروحيّ كفاية، أن اكتسب هذه الدرجة من عدم التأثّر. وكان الجواب: «لم عليّ أن أكرث لهذه الكلاب التي تنبح؟ أنا لا أعيرهم أيّ انتباه، الله وحده هو من أقبل حكمه». هذا مثال على التيه وقدرته على تحريرنا من الاعتماد على رأي الآخرين فينا. بالتكبر نضع أنفسنا

في المحور فنصير معيار الحقيقة والحقّ والخير والشرّ، فنصبح عندئذٍ أحرارًا من أيّ حكم ومن الغرور. لكن يلزمنا عجب كبير لتخلّص فعلاً وتمامًا من الكبرياء، وهذا العجب لحسن الحظّ يتخطّى قدراتنا البشريّة.

العلاج الثاني هو التواضع، أساسًا التواضع هو موقف إنسان يبقى دومًا تحت حكم الله، موقف إنسان يشبه التربة. التواضع أي Humility تشتقّ من الكلمة اللاتينيّة Humus أي التربة الخصبة التي لا يلاحظها أحد ويدوسها الجميع. إنّها صامته، غير واضحة، قاتمة، ومع ذلك حاضرة دائمًا لتتقبّل كلّ زرع، وتعطيه الكينونة والحياة. هي الأكثر حقارة والأوفر ثمرًا لأنّها أصبحت خصبة حقًا عندما قبلت كلّ نفاية الأرض. إنّها منخفضة جدًا بحيث لا يستطيع أحد أن يلوّثها أو يحقّرها. لقد قبلت المكانة الأخيرة ولا تستطيع الانحدار أكثر. في هذه الحالة لا شيء يمكنه أن يمزّق هدوء الروح وسلامها وفرحها.

هناك لحظات يهتزّ فيها اعتمادنا على ردود فعل الآخرين. إنّها أوقات الحزن العميق والفرح العظيم. عندما رقص الملك داود أمام تابوت العهد (صموئيل ٦: ١٤) ظنّ كثيرون ومنهم ميكال ابنة شاول أنّ الملك يتصرّف بطريقة غير لائقة. وربّما ابتسموا وانصرفوا مُخرجين، إلّا أنّه كان سعيدًا لدرجة أنّه لم يلحظ شيئًا. والأمريسيّان بالنسبة إلى الحزن، فعندما يكون هذا الحزن حقيقيًا وعميقًا يصبح الإنسان صادقًا بحيث ينسى مواقفه وتصرّفاته وكلّ ما يحوط به.

في حالات الحزن والفرح هذه، يصعب على الإنسان أن يراقب ذاته أو أن يلاحظ ملامح شخصيته، ومع ذلك هناك لحظة نشعر فيها بحقيقتنا، وأننا تعافينا من الفرح أو الحزن ونندهش للفرق الذي نلمسه في تلك اللحظة في شخصيتنا وما نحن عليه عادة. عندها يظهر عمقنا أو نتبين سطحيتنا بوضوح. وإذا كنّا يقظين وحريصين، وإذا كنّا لا نتنقل من دون تفكير من حالة ذهنية أو عاطفية إلى أخرى، متناسين الأمور العابرة، نستطيع أن نتعلم تدريجاً كيف نحافظ على ملامح الحقيقة التي تظهر في لحظة ما. كتّاب روحيّون كثيرون يقولون إنّه يجب علينا أن نكتشف المسيح في داخلنا. يسوع المسيح هو الإنسان الكامل البارّ، ويمكننا أن نكتشف ما هو حقيقيّ وصادق فينا حين نكتشف ما يشبهه. هناك مقاطع في الإنجيل لا نقبلها ونثور ضدها، في حين مقاطع أخرى تلهب قلوبنا (لوقا ٢٤: ٣٢). إذا أشرنا إلى تلك المقاطع التي تدفعنا إلى الثورة أو تلك التي نصدّقها من كلّ قلبنا نكون قد وجدنا طرفي النقيض في داخلنا، وباختصار الدجال والمسيح. علينا أن نحذر هذين النوعين من المقاطع ونركّز على تلك القريبة من قلوبنا، لأنّنا قد نفترض أنّها تتلاقى في نقطة معينة نتشابه فيها مع المسيح فنكون صورة عنه. ولكن لا يكفي أن نتفاعل عاطفياً مع هذا المقطع أو ذاك من الإنجيل، علينا أن نلبس كلمات المسيح ونجسّدها.

هناك أوقات نشعر معها أنّنا نريد أن نتصالح مع أعدائنا، ولكن إذا عارض الشخص الآخر وقاوم، قد يتحوّل الشعور بالسلم إلى إحساس بالعداوة. وهذا ما حدث لميوسوف في كتاب دوستوفسكي «الإخوة

كارامازوف». فقد كان فظاً وغير متسامح مع الآخرين، ولكنّه استعاد احترام نفسه وبدأ حياته من جديد. إلّا أنّ وقاحة كارامازوف غير المتوقعة غيّرت فوراً شعور ميوسوف وتحول هذا من الإنسان المسالم المحبّ الخير إلى الإنسان الأكثر وحشيّة. كلّ المشاعر التي خفتت في قلبه وماتت، اشتعلت في الحال.

لا يكفي أن تستحوذ علينا المقاطع التي تبدو صادقة جدّاً، لكن علينا أن نكمل الجهاد نحو الأفضل، ونطرح عنّا كلّ ضحالة فنصبح صادقين وحقيقيّين وجدّيّين. كما أنّ يسوع صادق وجدّيّ، نحن علينا أن نتمثّل به. وهذا لا يعني تقليده ظاهريّاً، بل روحياً. لا نستطيع تقليد يسوع المسيح في تصرفه وحياته، إنّّه نضال قاسٍ ومعقّد.

هذا ما يميّز العهد القديم عن الجديد: وصايا العهد القديم فرضت قوانين سلوك وحياء، ومن حافظ على هذه التعاليم اعتبر إنساناً صالحاً، ومع ذلك لم يكن باستطاعته أن يستمدّ منها حياة أبدية. على العكس وصايا العهد الجديد لا تجعل من الإنسان رجلاً صالحاً، إذ قال يسوع يوماً لتلاميذه: «وهكذا أنتم، إذا فعلتم جميع ما أمرتم به فقولوا: نحن خدم لا خير فهم، وما كان يجب علينا أن نفعله فعلناه». عندما نتّم وصايا يسوع المسيح، ليس فقط على اعتبار أنّها أنظمة سلوك، بل لأنّ مشيئة الله قد انطبعت في قلوبنا، أو لأنّنا كبخنا إرادتنا المريضة لإتمام هذه الوصايا ظاهريّاً ووقفنا تائبين، عارفين أنّه ليس هناك شيء أبعد من هذا الإذعان

الخارجي، فنحن ننمو تدريجًا في معرفة الله روحياً وليس فكرياً أو عقلاًياً أو علمياً.

فالإنسان الذي غدا صادقاً يمكنه أن يقف أمام الله ويرفع صلاته بانتباه وتركيز كليّ قلباً وإرادة، بجسد يستجيب تماماً ليقظة الروح. ولكن إلى أن نصل إلى كمال كهذا يمكننا أن نقف في حضور الله، واعين أننا حقيقيون إلى حدّ ما وغير صادقين جزئياً، وأننا نقدّم له ما أمكننا بتوبة صادقة، ونعترف بأننا لسنا بعد كاملين وتالياً غير قادرين على الاتحاد معه.

ولا في أيّ لحظة من حياتنا، إذا كنا بعد منقسمين أو في طريقنا إلى الاتحاد، نحن محرومون من إمكانية مواجهة الله. ولكن عوضاً من الوقوف بوحدة تامة تعطينا قوّة لصلاتنا، فنحن نقف في ضعفنا معترفين به ومستعدّين لتحمل نتائجه.

أمبروسيوس، أحد آخر الستارثس الروس في دير أوبتينا، قال يوماً إنّ نوعين من الناس سيحصلون على الخلاص، وهم الخطاة القادرون على التوبة، والضعفاء غير القادرين على التوبة، بل هم مستعدّون بصبر وتواضع وامتنان لتحمل وزر أخطائهم، والله يقبلهم بسبب تواضعهم.

الله صادق دائماً، لا يتغيّر، ولو استطعنا مواجهته كما هو ولمسنا حقيقته، لهانت الأمور. إلّا أننا وبشكل ذاتيّ، نستطيع أن نطمس هذه الحقيقة التي نقف إزاءها ونبدل الله الحقيقيّ بصورة باهتة أو أسوأ من ذلك، بإله غير حقيقيّ، وذلك بسبب ضعف إدراكنا.

عندما نكون على موعد مع أحد، فإنّ حقيقة اللقاء لا ترتبط فقط بالطرفين، بل بالفكرة المكوّنة مسبقًا التي يأخذها كلّ واحد عن الآخر، فنحن لا نخاطب الشخص بذاته، بل الصورة التي كوّنت عنه. وعادة تبذل الضحيّة جهدًا لكسر هذا التصرّو وبناء علاقة صادقة.

كلّنا كوّنّا صورًا وأفكارًا عن الله. ومهما كانت هذه الصور جميلة وحقيقيّة، إلّا أنّنا إذا لم ننتبه قد تقف هذه الصور حائلًا بيننا وبين الله الحقيقيّ، ونكون نحن نصليّ أمام وثن اختبأ الله وراءه. هذا يحدث بخاصّة عندما نتطلّع إلى الله لطلب ما أو لشفاعة. عندها لا نأتي إلى الله كما إلى شخص نريد أن نتشارك وإياه صعوبة ما، ونؤمن بمحبّته ونثق به ومنه ننتظر قرارًا. لكن نأتي ونحن نتصرّو الله بطريقة ما، ونوجّه صلواتنا ليس إلى الله بل إلى تصوّر عن الله يكون في تلك اللحظة مفيدًا لنا.

يجب ألاّ نأتي إلى الله بهدف أن نخبر مجموعة من المشاعر والأحاسيس الرمزيّة. علينا أن نأتي إلى الله لنكون في حضرته، وإذا أراد أن يُشعرنا بحضوره فمبارك هو الله، أمّا إذا أرادنا أن نخبر غيابه فمبارك الله أيضًا، لأنّه كما رأينا هو حرّ في الاقتراب منّا أو الابتعاد عنّا. هو حرّ كما نحن أحرار، مع أنّه عندما لا نأتي إلى حضرة الله فذلك بأنّنا مشغولون بما يجذبنا أكثر منه. بالنسبة إليه إذا لم يعبر عن حضوره فذلك بسبب أنّه يجب علينا أن نكتشفه ونكتشف أنفسنا. لكن غياب الله الذي قد نلاحظه خلال صلواتنا والشعور بأنّه ليس موجودًا هو أيضًا جزء مهمّ جدًّا

من العلاقة. شعورنا بغياب الله قد يكون نتيجة إرادتنا، فهو قد يريدنا أن نتوق إليه ونعرف كم هو غالي وجوده ولنعلم بالخبرة ماذا يعني الاتحاد الكامل.

لكن أحياناً خبرتنا حول غياب الله تحددها حقيقة أننا لا نمح أنفسنا فرصة إدراك حضوره. اشتكت إحدى السيّدات، التي كانت تتلو صلاة يسوع أربعة عشر عاماً، أنها لم تشعر يوماً بحضور الله. لكن عندما انتهت أنها تتكلّم طول الوقت قرّرت أن تصمت لأيّام عدّة، وعندما فعلت هذا أدركت أنّ الله موجود معها، وأنّ الصمت الذي يلقّها ليس فراغاً أو غياباً للضجة بل كان هذا الصمت صلباً، ولم يكن سلبياً بل هو صمت إيجابي، حضور الله الذي جعلها تشعر به عبر الصمت. ثمّ اكتشفت أنّ الصلاة تخرج عفويّة، وما عادت تلك الضجة المزعجة التي كانت تحول دون حضور الله.

إذا كنّا متواضعين أو حتّى معتدلين يجب ألاّ نتوقّع: لأنّنا قرّرنّا أن نصلي، أنّه علينا أن نحصل على خبرة القديس يوحنا الصليب أو القديسة تيريزا أو القديس سيرافيم ساروفسكي. ومع ذلك نحن لا نتوق إلى خبرة القديسين بل إلى تكرار خبرة سابقة لنا، مع أنّ التركيز على خبرة سابقة قد يعمينا عن خبرة قد تصادفنا. ومهما كان شعورنا فهو ماضٍ ومرتبّط بما كنّا عليه بالأمس وليس بما نحن عليه اليوم. نحن لا نصلي بهدف أن نصل إلى خبرة نفرح بها، لكن بهدف لقاء الله مع كلّ ما قد يطرأ كنتيجة.

علينا أن نتذكر أيضًا أنه يجب علينا أن نقارب الله عالمين أننا لا نعرفه. علينا أن نقارب الله الغامض الذي يكشف عن نفسه بالطريقة التي يختارها هو. عندما نأتي إليه نحن أمام إله لا نعرفه بعد. وعلينا أن ننفتح على أيّ كشف عن شخصه أو عن حضوره.

ربّما نكون فهمنا الشيء الكثير عن الله عبر خبرتنا أو خبرة الآخرين، من كتابات القديسين، من تعليم الكنيسة، من الكتاب المقدس. وقد نعرف أنه طيّب ووديع ومتواضع، وأنه نارمتأجّة، وأنه دياننا وخلصنا وما إلى ذلك، ولكن علينا أن نتذكر أنه، في أيّ وقت كان، قد يكشف عن نفسه بشكل لم نعرفه من قبل، حتّى ضمن ما ورد أنفًا. علينا أن نقف أمامه بكلّ وقار وإجلال، ونستعدّ للقاء إله مألوف أو إله نجهله. قد يعطينا فكرة عمّا هو عليه أو شيئًا مختلفًا عمّا نتوقّعه. نحن نرجو أن نلتقي يسوع الوديع والرحيم والمحّبّ، وأن نلتقي الله الذي يدين ويحكم ولا يدعنا نقرب منه في حالتنا الحاضرة، أو أن نأتي إليه تائبين متوقّعين أن نُنبذ ونلاقي الرحمة.

الله، وفي كلّ المراحل، هو بالنسبة إلينا معروف جزئيًا وغير معروف. هو يكشف نفسه فنعرفه ولكننا لن نعرفه تمامًا. سيبقى هناك السرّ الإلهي، الجوهر الإلهي السريّ الذي لن نستطيع اختراقه أبدًا.

مغفرة الله تعطى بالمشاركة معه، بالاشتراك معه في حقيقته، إلى الحدّ الذي يسمح به هو. يستعمل القديس مكسيموس مثل السيف الذي

غدا أحمر اللون: السيف لا يعلم متى تنطفئ النار، والنار لا تعلم أين يبدأ السيف. ويستطيع المرء أن يقول مع القديس مكسيموس اقطع بالنار واحرق بالحديد. وهكذا عندما ندخل في معرفة الله فنحن لا نحتويه بل هو الذي يحتوينا، ونأمن في رحابه.

قال القديس أثناسيوس إنّ ترقّي الإنسان نحو الألوهة يبدأ لحظة خلقه. من البدء يمنحنا الله نعمة لتحقيق وحدتنا معه.

من وجهة النظر الأرثوذكسيّة ليس هناك «إنسان طبيعيّ» تضاف إليه النعمة. كلمة الله الأولى التي نادتنا من العدم كانت أوّل خطوة لنا نحو إتمام ندائه، أي أنّ الله يكون في الكلّ ونحن نكون فيه كما هو فينا.

علينا أن نستعدّ لنجد الخطوة الأخيرة في علاقتنا مع الله في فعل عبادة نقيّة، وجهًا لوجه مع سرّ لا نستطيع ولوجه. نحن ننمو في معرفة الله تدريجًا من سنة إلى أخرى حتّى نهاية حياتنا، ونبقى على ذلك في الحياة الأبديّة، من دون أن نصل إلى القول إنّنا نعرف كلّ شيء عن الله. عمليّة اكتشاف الله التدرّجيّة تقودنا في كلّ لحظة إلى الوقوف، وخبرتنا السابقة خلفنا، وسرّ الله غير المعلوم أمامنا. القليل الذي نعرفه عن الله يجعل من الصعب علينا معرفة الأكثر لأنّ هذا الأكثر لا يمكن إضافته إلى القليل، بما أنّ كلّ لقاء يغيّر نظرتنا وما عرفناه قبلاً يصبح غير حقيقيّ على ضوء ما عرفناه لاحقًا.

هذا ينطبق على أيّة علاقة نكتسيها، كلّ يوم نتعلّم شيئًا في

الإنسانيّات والعلوم الأخرى. لكنّ العلم الذي اكتسبناه له معنى فقط لأنّه يقودنا إلى خطّ فاصل يبقى وراءه شيء يمكننا اكتشافه. إذا توقّفنا وراجعنا ما نعرفه سيكون ذلك مضیعة للوقت. إذا أوّل عمل نقوم به إذا أردنا أن نلتقي الإله الحقيقيّ في الصلاة، هو أن ندرك أنّ كلّ العلم الذي اكتسبناه سابقًا جعلنا نقف أمام الله. هذا كلّ ثمين وذو مغزى عميق. ولكن إذا لم نذهب أبعد من ذلك يصبح كلّ شيء ضبابيًّا، ولن تكون بعد الحياة واقعيّة، سيصبح كلّ شيء ذكرى، والمرء لا يعيش على الذكريات.

في علاقتنا مع الناس نحن نظهر للآخر وجهًا من شخصيّتنا، مقابل أن يظهر هو وجهًا من شخصيّته، قد يكون هذا جيّدًا إذا أردنا أن نقيم تواصلًا مع الآخر، ولكنّه سيئٌ وشريرٌ إذا أردنا عبر ذلك استغلال ضعف الآخر. بالنسبة إلى الله نحن نبرز الوجه الأقرب إليه، الوجه الواصل والمحبّ. لكن علينا أن نعي حقيقة أنّنا لا نلاقي وجهًا لله بل الله في كامل قدرته.

عندما نأتي الصلاة على أمل اختبار الله في حضرته وأنّ صلاتنا ستكون حوارًا أو حديثًا مع طرف يصغي إلينا. نحن نخشى أنّنا قد لا نشعر بحضوره على الإطلاق، وأنّنا نتكلّم في الفراغ من دون أن يكون هناك من ينصت ومن يجيب ومن يهتمّ. قد يكون هذا انطباعًا شخصيًّا، إذا قابلنا خبرة الصلاة مع علاقتنا اليوميّة، نعرف أنّ أحدًا ما يصغي بانتباه إلى ما نقوله، ومع ذلك نشعر أنّ كلماتنا تذهب هدرًا وهباء. صلاتنا تصل إلى الله ولكنها لا تستجاب دائمًا بفرح وسلام.

عندما نتكلّم متّخذين موقفًا ما، نظنّ دائمًا أنّنا هنا والله هناك بعيدًا عنّا. إذا بحثنا عن الله في الأعلى وأمامنا وحولنا لن نجده. يقول القديس يوحنا الذهبيّ الفم «ابحثوا عن الباب الداخليّ لغرفة روحكم وستكتشفون أنّ هذا هو باب ملكوت السماوات». القديس أفرام السوريّ يقول إنّ الله عندما خلق الإنسان وضع في عمق أعماقه كلّ الملكوت، وأنّ مشكلة الحياة البشريّة هي أن تحفر عميقًا لتصل إلى الكنز المدفون. لذا لنجد الله علينا أن نحفر بحثًا عن هذه الغرفة الداخليّة، عن هذا المكان الذي يقبع فيه ملكوت الله كلّ حيث نستطيع لقاء الله.

الأداة المثلى التي تقهر كلّ العوائق هي الصلاة. تكمن المشكلة في الصلاة بانتباه، ببساطة وبصدق من دون إبدال الإله الحقيقيّ بإله مزيف، بصلب، بمنتج من مخيلتنا، ومن دون أن نعرف شيئًا عن الخبرة النسكيّة. في الصلاة يجب أن نركّز على الكلمات ونؤمن بأنّ كلّ كلمة ننطق بها تصل إلى الله. يمكننا أن نستعين بكلماتنا وبكلمات رجال عظام لنعبّر عن شعورنا وما يكمن في داخلنا من أحاسيس. الله لا تهّمّه كثرة الكلمات بل صدقها. عندما نستعمل مفرداتنا يجب أن نتحدّث مع الله بدقّة. الله لا يهّمّه الإطالة أو الإيجاز في الكلام، الأساس عنده هو الصدق.

هناك أوقات تكون فيها الصلوات عفويّة وسهلة، وفي أحيان أخرى نشعر أنّ النبع قد جفّ. وهذا هو الوقت الذي نستعين فيه بكلمات أشخاص آخرين تعبّر أساسًا عمّا نؤمن به. عندها يجب أن نصليّ بإيمان

مضاعف، ليس فقط بالله بل بأنفسنا أيضًا.

وهناك أوقات لا نحتاج فيها إلى أي كلمة في الصلاة، نصلي حينها بصمت كامل. هذا الصمت التام هو الصلاة المثالية، شرط أن يكون هذا الصمت حقيقيًا وليس حلمًا نهاريًا. خبرتنا قليلة جدًا في ما يختصّ بمعنى صمت الجسد والروح، فهو يعني سكونًا يملأ الروح وسلامًا تامًا يملأ الجسد، فمبدأ كل اضطراب وهيجان من أي نوع كان ونقف أمام الله بفعل عبادة حقيقية.

وتكون هناك أوقات نشعر فيها بالراحة النفسية والجسدية ونكون متعبين من كثرة الكلام، ولا نرغب في تعكير حياتنا ونسعد لهذا التوازن الهشّ. هذا يقف عند حدود الغرق في حلم نهاريّ. الصمت الداخلي يعني غياب أي تشوّش في الأفكار والمشاعر، إنّه يقظة تامة وانفتاح على الله. علينا أن نحافظ على الصمت التام متى استطعنا ذلك، وألاّ نسمح له بأن يتحوّل إلى قناعة واطمئنان. ولتجنّب ذلك، حدّثنا الكتاب الأرثوذكس العظام من التخلّي تمامًا عن أشكال الصلاة المعهودة، لأنّه حتّى أولئك الذين وصلوا إلى هذا الصمت التأمليّ، عندما يشعرون أنّهم قد يتوانون ويضعفون روحيًا، وجدوا ضرورة استرجاع كلمات الصلاة، حتّى تجدد الصلاة هذا الصمت.

الآباء اليونانيّون وضعوا هذا الصمت، الذي أسموه الهدويّة، عند بدء حياة الصلاة وعند نهايتها. الصمت هو الوضع الذي تكون فيه كلّ قوى

الروح وملكات الجسد في سلام تامّ، هادئة ورابطة الجأش، يقظة وحرّة من كلّ هيجان واضطراب.

مثل آخر نجده في كتابات الآباء وهو مياه البركة؛ «طالما هناك تموجات على سطح الماء لا شيء ينعكس بالشكل الصحيح، لا الأشجار ولا السماء. وعندما يهدأ سطح الماء تنعكس السماء بوضوح ويمكنك مشاهدة الأشجار على ضفّة البركة وكلّ شيء حولها».

ويستخدم الآباء مثلاً آخر ويقولون: «طالما أنّ الوحل لم يرقد في أعماق البركة فالماء غير صافية ولا يستطيع المرء أن يرى عبرها». هذان التشبيهان ينطبقان على حالة قلب الإنسان: «طوبى لأنقياء القلوب فإنّهم يعاينون الله» (متّى ٥: ٨). طالما أنّ الوحل يتحرّك في الماء فليست هناك رؤية واضحة عبرها. وأيضاً طالما أنّ سطح الماء تعلوه التموجات فانعكاس الأشياء يبقى مبهمًا.

طالما أنّ النفس ليست هادئة فليس هناك من رؤية. لكن عندما يأتي بنا الهدوء إلى حضرة الله، هناك يتدخّل نوع آخر من الصمت المطلق: صمت الروح الهادئ والرابط الجأش خاشعاً يصلّي في حضور الله.

الحنامة

صلاة للمبتدئين

نحن جميعًا مبتدئون، ولا أنوي أن أُملي عليكم دروسًا، إلاّ أنّي أبغي أن أتقاسم وإياكم بعض الأمور التي تعلّمتمها، جزئيًا بالخبرة وأكثر عبر تجارب الآخرين.

الصلاة أساسًا لقاء، إنّها اجتماع بين الروح والله. ولكن، ليكون هذا اللقاء حقيقيًا يلزمه أن يكون هناك شخصان صادقان وحقيقيّان. إلى حدّ بعيد نحن غير صادقين، والله غالبًا في علاقتنا معه، غير حقيقيّ بالنسبة إلينا، لكوننا نعتقد أنّنا نواجه الله، في حين نحن في الواقع نتوجّه إلى من نتخيّل أنّه الله. ونحن نعتقد أنّنا نقف أمامه بكلّ صدق، بينما نحن لا نكون على حقيقتنا، نحن نمثّل، نخادع نحن شخصيّة مسرحيّة. كلّ واحد منّا مؤلّف من شخصيّات عدّة في وقت واحد. قد يكون هذا الخليط غنيًا، ولكن أيضًا قد يكون اجتماعًا غير مناسب لشخصيّات متضاربة وغير منسجمة. نحن مختلفون بحسب الظروف والأحوال المحيطة بنا.

الأشخاص الذين يعرفوننا يدركون أننا أشخاص مختلفون. هناك مثل روسي يقول: «هو أسد عندما يقابل الحمل، وحمل حين يلاقي أسدًا». وهذا صحيح في حالات عديدة: فنحن نعرف تلك السيّدة المبتسمة على الدوام مع الغرباء، بينما في بيتها هي الرعب بعينه. وهناك أيضًا المدير الذي يخشاه الجميع في العمل، في حين أنه رقيق جدًا في حياته الخاصّة.

في ما يتعلّق بالصلاة، الصعوبة الأولى هي أن نعرف بأيّة شخصيّة يجب أن نقابل الله. هذا ليس بالأمر السهل، لأننا لم نتدرّب على اكتشاف حقيقة شخصيّتنا، ولا نعلم أيّ جانب هو الحقيقي والصادق ولا كيف نجده. ولكن، لو خصّصنا خمس دقائق كلّ يوم للنظر في نشاطنا وعلاقاتنا، قد نقرب أكثر من هذا الاكتشاف. قد نكتشف نوع الشخص الذي نكون عليه حين نلاقي هذا أو ذاك من الناس، والشخص الآخر الذي نكون عليه عندما ننجز عملاً ما. ونتساءل: متى أكون على حقيقيتي، ربّما أبدًا، وربّما لجزء من الثانية أو لفترة محدودة وفق الظروف، أو خلال لقاء أشخاص مميزين. وخلال الخمس أو العشر دقائق التي توفّرها في النهار، ستكتشف أنّه مملّ جدًا أن نُترك وحدنا لنخلد لأنفسنا. نحن عادة نعيش نوعًا من الحياة المتقلّبة. ليس فقط أننا مجموعة من الأشخاص في ظروف مختلفة، ولكنّ الحياة التي في داخلنا تخصّ أشخاصًا آخرين. إذا نظرت إلى عمق أعماقك وتجرّأت على أن تسأل كم مرّة تنسجم في أعمالك مع شخصيّتك الحقيقيّة، وكم مرّة تعبّر حقيقة عن نفسك، ستجد أنّ هذا

نادر جدًا.

في أحيان كثيرة، نحن نغرق في ما يحدث حولنا من أمور تافهة وغير ضرورية عبر الهاتف أو الصحف أو التلفزيون. ولكن خلال لحظات التأمل والتركيز اليوميّة، عليك أن تقصي عنك كلّ ما هو غير جوهريّ وأساس في الحياة. بالطبع قد نملّ هذه الوحدة ولكن لا بأس. وهذا لا يعني أننا فارغون تمامًا، لأنّه في عمق أعماقنا نحن مخلوقون على صورة الله، وفي هذا تجريد وتعريّة. هذا يشبه تنظيف لوحة قديمة من الطلاء الذي تراكم عليها على مرّ العصور، بفعل الرسم فوقها فاخفت معالم الرسم الأوّل الذي ابتدعه صاحبه. أوّلًا، كلّما نظّفنا كلّما اختفت الأوساخ وظهر جمال اللوحة الحقيقيّ. سنكتشف أننا فقراء نحتاج إلى الله وإلى ملاقاته حقًا. فلنصلّ «ساعدي يا ربّ لأتخلّص من ادّعائي وأجد نفسي الحقيقيّة».

الحزن والفرح هبتان من الله، وهما أحيانًا نقطة التقاء مع شخصيّتنا الحقيقيّة، وهذا عندما نتخلّى عن عبثنا ونتحصّن بعيدًا عن زيف الحياة. ثانيًا علينا أن نتحقّق من مشكلة الله الحقيقيّ، لأنّه بالطبع عندما نتوجّه إلى الله ونخاطبه يجب أن يكون هذا الإله حقيقيًّا.

إذا أحببنا شخصًا ما فنحن نزيّنه بكلّ أنواع الأخلاق والمزايا، لكنّه قد لا يتحلّى بأيّ واحدة منها، وكأنتنا نحن نخاطب شخصًا لا وجود له. هذا صحيح أيضًا بالنسبة إلى الله. نحن جمعنا صورًا كثيرة عن الله من الكتب ومن الكنيسة ومن الكهنة، وممّا سمعناه من البالغين في صغرنا. في أغلب

الأحيان تمنعنا هذه الصور من لقاء الإله الحقيقي. ليست هذه الصور كلها على خطأ، هناك بعض من الحقيقة فيها، ومع ذلك هي لا تليق بالله ولا تلائمه. إذا أردنا ملاقاته الله يجب أن نتعرف إليه بالقراءة والإنصات إلى ما يقوله عنه الآباء والمفكرون.

معرفة الله التي نملكها اليوم هي نتيجة خبرة الأمس، وإذا واجهنا الله كما نعرفه سندير ظهرنا للحاضر والمستقبل وننظر فقط إلى ماضينا. لن نلاقي الله بل ما عرفناه عنه. هذا يضيء على وظيفة اللاهوت، بما أن اللاهوت هو كل ما نعلمه عن الله وما جمعناه عنه. إذا أردت أن تقابل الله على حقيقته يجب أن تأتي إليه بخبرة ما تسمح لك بالاقتراب منه وتركها عند هذا الحد، واقفًا ليس أمام الله الذي تعرفه بل أمام الله المعروف والمجهول في آن.

ماذا يحدث تاليًا: أمر بسيط جدًا: الله حرّفي أن يأتي إليك ليستجيب لك ولصلواتك ويجعلك تشعر بحضوره، وقد يختار الله ألا يفعل ذلك البتة.

اكتشف أنت حقيقة نفسك وواجه الله كما هو، بعد أن تبعد عنك كل الصور المغلوطة عن الله وكلّ وثنيّة. ولمساعدتك على هذا البحث أقترح عليك أن تتلو هذه الصلاة «ساعدني يا ربّ على إقصاء كلّ الصور المغلوطة عنك مهما كان الثمن».

في بحثنا عن حقيقة ذاتنا، قد يتملّكنا الضجر واليأس والخوف.

إلا أن التجرد أمام الله هو الذي يعيدنا إلى وعينا فنبدأ بالصلاة. الشيء الأول الذي نتجنبه هو الكذب على الله. فلنتكلم معه بصراحة ونقول له أي نوع من الناس نحن، ليس لأنه لا يعلم ذلك، ولكن هناك فرق كبير بين أن نحب شخصاً معتبرين أنه يعرف عنا كل شيء، وأن نتحلى بالشجاعة والحب الحقيقي لتحدث عن نفسنا بصدق. فلنخبره صراحة أننا نشعر أمامه بالقلق والارتباك، وأنها لا نريد حقاً أن نقابله، وأنها متعبون ونفضل أن نخلد إلى النوم، ولنتذكر دوماً أننا نخاطب الله إذ لا يجوز لنا أن نكون تافهين ووقحين. بعد ذلك الأمر المثالي هو أن نبقي سعيدين في حضوره كما عندما نكون برفقة من نحب. لنلقِ كل همومنا بين يديه، وبعد أن نخبره كل شيء نترك له كل شيء، فنتحرر من كل شيء ونتلو هذه الصلاة: «ساعدني يا رب لأتحرر من كل مشاكل وأعبائي وأحصر تفكيري فيك».

إذا لم نضع همومنا عنده، ستحول هذه بيننا وبينه خلال لقائنا، فالمهم إذاً أن نتخلى عنها. علينا أن نثق بالله ونرتاح من أعبائنا. ولكن ماذا بعد؟ ماذا سنفعل؟ علينا أن نتعلم كيف نصمت لنستمع إلى الله وننعم بمعجزة حضوره. ولئلا نقع في الضياع نبدأ بالصلاة فنختار تلك الجاهزة والبسيطة وننتبه للكلمات التي نتلوها. يعتقد البعض أن الصلوات الجاهزة لا تعبر عن رأيهم. هذا ليس صحيحاً، نحن نتعلم كيف يفكر الآباء والمعلمون ونحن ننتمي إلى كنيسة، وهذه الصلوات تعيننا أيضاً في أوقات الجفاف حين لا نجد الكلمات المناسبة. وأقترح هذه الصلاة اليومية

لدقائق معدودة: «ساعدي يا ربّ على أن أرى خطايائي وعلى ألاّ أدين جاري والمجد لك يا الله».

قبل ان أتطرّق إلى موضوع الصلاة غير المستجابة، أودّ أن أصلّي إلى الله لينير طريقي لأنّه موضوع صعب وحيويّ في آن. إنّهُ عثرة قد تعيق المبتدئين وحتّى المتمرّسين وتمنعهم من الصلاة لله. مرّات عديدة، يصلّي الناس ويبدولهم أنّهم يخاطبون سماء خاوية. وفي كثير من الأحيان يكون هذا بسبب أنّ صلاتهم خالية من المعنى وسخيفة.

في أوقات كثيرة نشعر أنّنا نصلّي بالشكل المطلوب، لكنّ الله لا يستجيب لطلب قد يتسبّب بأذى للآخرين.

وهناك حالات نصلّي فيها من كلّ قلبنا سائلين شيئاً مهمّاً، ومع ذلك لا نحظى إلّا بالصمت، والصمت أصعب من الرفض. إذا قال الله «لا» فهذا ردّ فعل إيجابيّ منه، لكنّ الصمت يعني غياب الله. وهذا يقودنا، عندما لا تستجاب صلاتنا، إلى الشكّ بالله وبأنفسنا. شكّنا بالله ليس بجبروته وقدرته على فعل ما يريد، ولكنّنا نشكّ بحبّه واهتمامه. نحن نسأل شيئاً أساسيّاً وهو لا يبدي أيّ اهتمام، أين هي رحمته ومحبّته؟ هذه هي التجربة. نحن نعلم أنّه إذا كان لنا إيمان مثل حبة الخردل نستطيع أن ننقل الجبال، وعندما نرى أنّ لا شيء يتحرّك من مكانه نقول: «هل هذا يعني أن إيماني زائف وغير كافٍ وخطأ؟». هذا أيضاً غير صحيح وإليك جواباً آخر: إذا قرأت الإنجيل بانتباه ستري أنّ هناك صلاة واحدة غير مستجابة. إنّها

صلاة يسوع في بستان الجثمانية. ومع ذلك نحن نعلم أنّه إذا اهتمّ الله لصلاة أحد، فعلى الأقلّ لصلاة ابنه قبل موته، ونعلم أيضًا إذا كان هناك من إيمان يضرب المثل فيه فهو إيمان ابنه، إلا أنّ الله وجد إيمان المتألّم الإلهي قويًا وكبيرًا جدًّا وباستطاعته تحمّل الصمت.

الله يتحقّق عن الاستجابة لصلواتنا عندما يراها غير لائقة، وعندما يجد فينا العمق والقدرة وقوّة الإيمان، وإمكانية التعويل علينا لنبقى على إيماننا حتّى في مواجهة الصمت. تذكّروا أنّه علينا أن نحافظ على إيماننا سليمًا وقويًا بالله وبكنيسته المقدّسة. وعندما تعترضنا التجارب والعثرات لنكرّر ما قاله يسوع المسيح: «في يدك أستودع روحي، لتكون مشيئتك لا مشيئتي».

بعد كلّ ما قلته عن الصلاة أعتقد أنّه بإمكانك أن تصلّي؟ بالطبع لا، لأنّ الصلاة ليست مجرد جهد نقوم به لحظة ننوي الصلاة. على الصلاة أن تتأصّل في حياتنا، وإذا كانت حياتنا تتناقض وصلاتنا، وإذا كانت صلواتنا لا تتطابق مع حياتنا، فهي لن تكون صلاة حيّة أو حقيقية. بالطبع يمكننا أن ندلّل هذه الصعوبة ونتخلّص من كلّ ما لا يتوافق وصلاتنا. الصعوبة الثانية التي نصادفها هي في الوقوع في الحلم النهاريّ، أي عندما تعبّر صلواتنا عن نوع من المشاعر والأحاسيس، وليس عن حقيقة حياتنا. هناك حلّ مشترك لهاتين المشكلتين، وهو أن نجمع بين الحياة والصلاة فنجعلهما واحدًا، أي أن نعيش صلواتنا. ولمساعدتنا في هذا المجال،

الصلوات الجاهزة مفيدة جدًا رغم كونها تعبّر عن أشخاص أعظم منّا، عن مسيحيين حقيقيين، ولهذا نحن نستعين بها لنحاكي من وضعها.

تتذكرون كلمات يسوع «بين يديك أستودع روحي». طبعًا نحن لم نختبر هذه التجربة، ولكن إذا تعلّمنا يومًا بعد يوم كيف نصبح هذا الإنسان الذي باستطاعته أن ينطق بهذه الكلمات بصدق وإخلاص، تغدو صلاتنا حقيقة ونكتشف حقيقة ذاتنا ونصبح حقًا أولاد الله.

إذا اعتمدت الصلوات الخمس، التي وضعتها، شعارًا دوريًا يوجّه حياتك اليومية، سترى أنّ الصلاة تصبح معيار حياتك، ستعطيك إطارًا لها. وستكون حياتك هي الديانة لك أو عليك. خذ كلّ جملة في كلّ صلاة واجعلها قاعدة يومية.

وفي الختام أحبّ أن أتلو هذه الصلاة القصيرة التي توحدنا أمام عرش الله. «يا ربّ لا أعرف ماذا أطلب إليك. أنت وحدك عالم باحتياجاتي الحقيقية. أنت تحبّني أكثر ممّا أحبّ نفسي. ساعدني على أن أرى حاجاتي الحقيقية الخافية عليّ. لا أجروّ على طلب صليب أو تعزية. أنا أستطيع أن أنتظرك، قلبي منفتح عليك. أعني لأجل عظيم رحمتك، اضربني واشفني، دمرني وأقمني. أنا أعبد بصمت مشيئتك وسبلك الغامضة. أنا أقدم نفسي لك قربانًا. أنا أضع ملء ثقتي فيك. لا أرغب إلّا في إتمام إرادتك. علّمني كيف أصلي، صلّ أنت بنفسك في داخلي».

سلسلة

«الروحانيات والليتورجيا»

راهب من الكنيسة الشرقية

١. أبانا

سميرة عوض ملكي

٢. حوار القلب

المتروبوليت أنطوني بلوم

٣. مدرسة الصلاة

المتروبوليت أنطوني بلوم

٤. الصلاة الحيّة